عتبات وأبواب

- مجموعة قصصية -



الجيلالي الطاهر جلوفات



عتبات وأبواب

- الكتاب : عتبات وأبواب
- المؤلف : الجيلالي الطاهر جلوفات
- لوحة الغلاف : بريشة المؤلف
- تصفيف وإعداد : أبوالعلاء مريم
- الطبعة الأولى 2007 .
- رقم الايداع القانوني : 2007/1863
- ردمك : 9954-8848-0-7



الزنقة 22. شارع محمد الخامس رقم 2 – 14000 . القنيطرة / المغرب

الهاتف: 36.28.09 / 36.45.58 (37 212) - الفاكس : 36.64.64 (37 212)

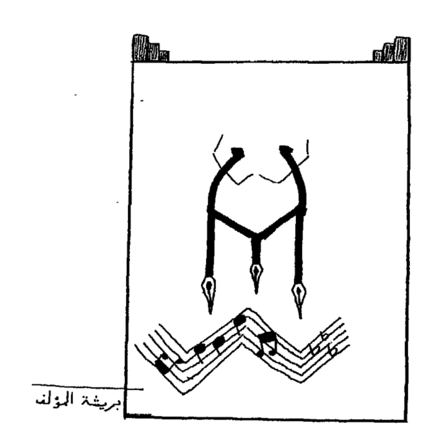
البريد الإلكتروني. rhizlane.elaroussi@gmail.com

البـــاب الأول

القـــــصـــص

من قـــصص " حمـــدان الرامـــي"

*غنائم برصاصة واحدة
*بشائر الريح الشرقية
*موحا " أرابيسك "
*التربيقة



بريشة المؤلف

من قصص "حمدان الرامي":

1-غنائم برصاصة واحدة.

لم يدر كم سار في أرض منخفضاتها طوب متحجر, تناثر عبرها شوك « العصفر » , ومرتفعاتها صخر وطين تخللته شجيرات وحشية جرف السيل بعض جذورها، وزيتونات أضر بها المعز فزهد فيها الأهالى. لكنه حين توقف واستدار إلى حيث ترك سيارته العتيقة قدر –دون النظر إلى ساعته– أنه سار أكثر من ساعة, وأنه قطع بين المشي والصعود والنزول كيلومترات تنيف على الأربعة. ورغم كل هذه المسافة، ورغم كل هذا الوقت لم تطر من أمامه أومن حوله حجلة واحدة.

تخلص من بندقيته, وقعد يمسح عرقا على جبينه رغم يوم خريفي بارد تنبئ رياحه المضطربة بالمطر، ثم حدج "طارروسته" " زيتونة "، وهي مبتعدة عنه على غير عادتها، حدجها بعينين حمراوين محتقنتين في وجه متجهم, فانكسرت نظراتها مستشعرة ما تصطخب به دواخله من غيظ.. ثـقلت رأسه فوق جسم متعب، أشعل سيجارة واستسلم لحديث النفس مسترقا نظرات زرقاء إلى "طاروسته"، وهي مكانها لا تزيد على غض بصرها متى لسعتها شرارة من عيونه: " هكذا أنت يا زيتونة ", حين يملأني الغيض وأكون في أمس الحاجة إلى قربك أجدك بعيدة عني، تفعلين فعل زوجتي؛ متى نظرت إليها بوجه عابس متجهم نفرت, وإن لم تنفر سكنت وخفضت البصر. هذا وذاك يشعرني بأنني فظ غليظ، معتد ظالم, يحمل

الآخرين نوبات التوتر التي تعتريه.. والحقيقة غير ذلك يا زيتونتي لو اقتربت مني، لو هي اقتربت مني، لو مسني نفس رطب لسخرت من غيظي، ولأمطر وجهي المتلبد ضحكا وقهقهة. لكن النفور مني, والخوف مني, وأنا مغتاظ, يجعلان الغيض يتكوم في صدري ويتصلب حتى أبدو كما يخيل إليك يا "زيتونة" وكما يدور في رأس زوجتي.. آه يا حمدان.." وارتسمت على شفتيه بسمة تشي بالخيبة، وفي صدره تلاحق الحديث، وهو ينفث الدخان من فيه ومنخريه: " ايه, وأنتما يا صاحبي, لاشك أنكما الآن أمام التلفاز تنتظران المقابلة التي حبستكما عن مرافقتي، ولاشك أنكما تتضاحكان وتقولان: "اليوم سيقتل "حمدان" "طاروسته" "زيتونة": يعني أنني لا أستطيع القنص إلا معكما, وسيارتي العتيقة لا أستطيع السير بها إلى الأراضي الوعرة، حيث يلوذ الحجل، إلا مستعينا بكما على دفعها، وكلبتي لا يحتد شمها إلا بين كلبيكما.. أكيد أنكما تترقبان عودتي بشوق الشامت لترشقاني بأسئلتكما الخبيثة عن خيبتي, وقد عدت خاوي الوفاض كما تتوقعان, ولتقرآ الندم في عيني على عصبيتي، وعلى ركو ب رأسي العصية بدل المكوث معكما لمشاهدة مقابلة الكأس لأنها لن تتكرر, وإرجاء القنص إلى الأحد المقبل لأن الصيد لن ينتهي، ولأن هذا الأحد تخبر رياحه بالتساقطات.."

قلب ناظريه في سماء دكناء, ثم عاد بهما إلى الأرض متأففا مطأطئا رأسه ، والحديث في صدره المنتفخ لا يهدأ:

"هذا صحيح, لكن كيف لا أغتاظ, كيف لا أركب رأسي وقد أديت ثمن البنزين كاملا من جيبي وكسرت خاطر زوجتي لتهيء غذاءنا من نفقتي وهي متحسرة على تبذيري متى حل

موسم الصيد؟ كل هذا إرضاءا لكما، يا صاحبي "حميمو" صاحب الحكايات والمستملحات التي تطوي بنا المسافات, ويا صاحبنا "الذيب" صاحب العين الخبيرة التي تسبق حاسة الكلاب إلى مكامن الحجل، كيف لا أغتاظ، وكيف لا أركب رأسي وقد استشعرت في ابتسامتكما تواطؤا؛ تتعللان بالمقابلة ولسان حالكما يقول: " لندعه يجرب القنص وحده, لن يستطيع السير بسيارته العتيقة المرتعشة إلى الأرض الوعرة, لن يجد حجلة واحدة, وهو من حرصه على ألا يعود بلا صيد لا محالة قاتـــــل "طاروسته" بالرصاص."

تصورهما يرتشفان مشروبهما ويتحدثان عن رأسه العنيدة، تحلب ريقه فنهض ميمما وجهه صوب سيارته لينال حاجته من الماء والطعام, وهو موزع بين رغبة في العودة بلا صيد, وإصرار على مواصلة البحث ليعود ببعض القنص, فيفوت على صاحبيه ما يتوقعان ويغطي على ما تعده زوجته تبذيرا.

كانت فوهتا البندقية على كتفه, وهو يمسك مقبضها في آلية، و"زيتونة " تارة وراءه وتارة جنبه، محافظة على المسافة بينها وبينه, وأحيانا كانت تصلها زمجرته فتجري أمامه تشتم الطوب والشوك، مظهرة لسيدها أنها تبذل قصارى جهدها، فما كان بها مباليا بل كان مشغولا بما سمعه مرة ومرات من صاحبيه عن ذكاء الحجل, وقدرته على معرفة ما يدور في رؤوس القناصين من بني آدم.. وفيما هو كذلك، عيناه تتابعان ما بداخل رأسه لا تنظران إلى حيث تطأ قدماه، أحس بجسم ينفلت من تحت قدميه.. اضطربت نبضات قلبه من المباغثة وعيناه تتابعان جسما طائرا أمامه،

لم يكن الجناحان سريعين كالمعتاد فلحقهما الرصاص لينقذف الجسم أرضا على بعد خطوات معدودات.

وقف "حمدان" منتفخا آمرا "زيتونة" أن تقوم بعملها. أسرعت "الطاروسة" إلى حيث هوى الجسم وعادت به مقتربة من صاحبها في احتراس شديد لم يألفه منها, ظلت ماسكة بالصيد حتى أخذه منها.

فحصه لحظات, وتفرس "الطاروسة" لحظة وهي تبصبص, فخرجت من فيه لعنة مدوية مصحوبة بركلة انتفض لها جسم "الطاروسة" وفرت تعوي عواء يشتد، حتى إذا ابتعدت وأقعت، وأخذ عواؤها يخفت صاح فيها "حمدان" شاهرا ما عادت به ملوحا به في حنق: "يا عديمة التربية, يا كلبة ،هل علمتك أن تأكلي نصف الصيد وتأتيني بالنصف؟ أهذه أخلاق "الطاروسات"؟ أم تريدين أن تعدمي بالرصاص؟" وكانت " "زيتونة" ترد على تعنيف سيدها "حمدان" بالنباح, ولم تكن نظراتها منكسرة بل كانت تحدج اليد الملوحة!

غطى نزوعه إلى القنص على غريزة الأكل فعزم على متابعة الصيد. خطا نحو "زيتونة" يأمرها أن تسير أمامه حتى لا يخدعه الحجل الماكر, ويموه عليه باختفائه بين الطوب، الذي يشبه لونه، فيمر عليه دون أن يراه. لكن "الطاروسة" لم تستجب له الا بالابتعاد والنباح..

ظلا كذلك وقتا طال حتى شق عليه؛ كلما خطا نحوها آمرا معنفا ابتعدت عنه تنبح بعنف رابه، وعيناها تحدجان ما في يده حتى يئس منها. فوضع الصيد في جرابه وقرر، مكرها، أن يطوف وحده، بعدما وقف مدة يتأفف منها قائلا

بلسان متذمر: " يا فرحتي بكما، أنت تفرين منى إلى الخلاء لتتبحى، وهى تفر منى إلى بيت بناتها لتنام بينهن، يا فرحة صاحبى إذا علما بما حصل؟ سيجد "حميمو" ما يحكيه وما يسلى به القناصين من هذا الموسم إلى الموسم المقبل". ثم تركها مغمغما. طاف طويلا, صاعدا نازلا، مضطربا، حتى كل ساعده المتوتر من حمل البندقية، وكلت عيناه المحتقنتان من التحديق، وأذناه ما عادتا تلتقطان إلا طنين رأسه المنتفخ.. طاف طويلا ليجد قدميه تسيران به في الموضع الذي طارت منه الحجلة، "وزيتونة" في مكانها لم تبرحه. هم أن يصوب إليها بعضا من رصاص غيضه، لكن شيئا على الأرض أمسك زناد لسانه وأسكته. انحنى ليلتقط جناحا بل نصف حجلة! وجم وقتا يفكر محدثا نفسه بالذي حصل.. ثم اختلس نظرات إلى "زيتونة" وهي مكانها, ثم أطال إليها النظر.. تخلص من البندقية والجراب، اتجه نحوها بخطى متباطئة وفي احتراس، لكن الطاروسة نهضت وابتعدت عنه لتقعي. تابع "حمدان" سيره إليها بنفس الخطى حتى إذا قاربها انثنى بجذعه وأخذ يكلمها كما يفعل حين يريد إطعامها. بقيت الطاروسة في مكانها تحاصره نظراتها، وهو إليها يخطو، مبطئا منثنيا خافضا صوته، تسبقه إليها بسمة تمسح بعض التجهم من وجهه حتى وصل إلى "حضرتها"، وحتى تدانيا، فجلس وهي واقفة. وضع في رفق كفه على ظهرها وشرع يمررها بحنان، وهو يردد: "ظلمتك، ظلمتك يا "زيتونة" ثم امتدت الكف إلى العنق وهو يردد: "سامحينـــــــي يا "زيتونة". ثم وصلت الكف إلى رأس الطاروسة، الراحة تمسح القنة, والأنامل في ليونة تحك

الجبهة، وهو يحدثها مدنيا فاه من أذنها:" أنت وفية ورائعة يا" زيتونة"، سامحيني، ظلمتك، أنت لم تأكلي من الصيد كما تصور رأسي المنتفخ، لقد وجدت النصف الذي خلتك أكلته وأدركت ما حدث.. الحجلة التى أصبتها لم تكن سوى فرخ أدرك سن الطيران, سرعة الجناحين لم تكن كالمعتاد, عقلي يا "زيتونة" حدثنى بذلك، فالحجل من سرعته, يا عزيزتي الوفية، يشبهه القناصون "بالميراج"، وكان على يا "زيتونتي" الوفية أن أتركه يعيش بعد ما خطر في عقلي أنه فرخ، أو كان علي أن أمهله حتى يبتعد ثم أصيبه حتى لا يفتت الرصاص جسمه الغض, هكذا يفعل القناصون يا "زيتونة"، أليس كذلك ؟؟، ولكن أصبعي القلقة كانت أسرع من عقلي إلى الزناد فقصم الرصاص الفرخ، وشتمتك ظلما وركلتك ظلما فسامحيني."

كان "حمدان" يستسمح "زيتونة" بلسانه مستعينا بكفه، وهي لا تفتأ عن الحركة، حتى استشعر منها ليونة فطواها ساعده وضمها وهي لا تقاوم. تلاقت أعينهما وقتا تتحاور في صمت.. فقال متنهدا: "كأني أرى دمعا في عينيك السوداوين يا "زيتونة"! كم كنت رائعة، وكم كنت قاسيا عليك!"

ظلا كذلك حتى شرد نظره وفكره، ولم يعده من شروده إلا أنفاس قرب عنقه ومخالب تعبث في ثيابه, حينئذ شعر في أعماقه كأن صنبورا اقْتُضَّ كابحُه فانفلتت منه زخات من الضحكات متلاحقة مدوية.. وخاطبها وهي تشتم عنقه: "هل تعرفين ما ترغب فيه نفسي الآن يا "زيتونة" ؟ أتمنى أن أعرف كيف أحكي ما وقع لنا لزوجتي, أتمنى أن

تضحك مني حتى أرى الدموع في عينيها السوداوين، أما "حميمو" وأما "الذيب" فدعينا منهما، ما عدت أحمل هم أسئلتهما الخبيثة، هيا هيا لنأكل ونعود".

التقط جرابه، أفرغ بندقيته من حشوة الرصاص، تحرك صوب السيارة العتيقة، تاركا وراءه فرخا مشطورا شطرين، و"زيتونة" تطير حوله تحاذيه وتبتعد عنه، وهو يسير مشدودا إليها، يشملها بنظرات محملة بحنان يتوالد يمازجه إعجاب يتزايد. بعدما نالا كفايتهما من الطعام والشراب جلس "حمدان الرامي" إلى المقود وأوسع لزيتونة جنبه بدل البندقية التي وضعها في المقعد الخلفي. مسح عليها بعينه وبكفه وخاطبها متلمظا أكلا استلذه: "صحيح أني مع صاحبي كنت أعود دائما بغنيمة وافرة، مزهوا بما قنصت، لكنني اليوم، ونحن رأسا لرأس، قد عدت بما لم أعد به في أي يوم من أيام القنص السابقة! صدقيني يا "زيتونة"، صاحباي سيلويان شفاههم عندما يعلمان بالذي عدت به, أما سيدة الدار فأتمنى أن أعرف كيف أحكي لها ما عدت به، ستفرح رغم أن جرابي خاو, آه ليتها تضحك مني حتى أرى الدموع في عينيها السواداوين الجميلتين." ورمى بالجراب في المقعد الخلفي ثم أدار مفتاح المحرك مرات لتنطلق السيارة العتيقة تحت أمطار خفيفة متقطعة، تطرد من الأرض سخونة مختزنة وترطب الطوب المتصلب.

1996/09/16

سيدي يحيى الغرب

القصة الثانية

بشائر الريح الشرقية

دار "حمدان" عتيقة, خدوش الزمن بادية على ظاهر حيطانها السميكة. تمتد جنبها حديقة واسعة تكاد تكون مستقلة عن المسكن. يحجبها من الخلف سور ركب فيه باب مستحدث نُبِّتَ أعلاه بقطع الزجاج المسننة دفعا للمتسلقين، أرضها غير خاضعة لهندسة معينة، ترك فيها النبات والغرس والخضر إلى العفوية والظرفية. وفي زاوية منها قام بيت "زيتونة" من خشب سميك رصت أضلاعه في تماسك وإحكام. لم يكن لـــ"حمدان" جار عن يمينه أو شماله، مسكنه كان يقع بين مؤسسة لمعالجة الخشب وبين مخزن كبير تابع لها، يفصله عن الحي خلفه زقاق ضيق امتدت على طوله دور من طابق أو من طابقين. الدار التي يقابل بابها باب داره كانت بين صاحبها "العسكري" و"حمدان" صلة.

"العسكري" قال يوما لحمدان جاسا ممهدا:" نرغب في يد ابنتكم لابننا سالم."

قال "حمدان": في أية بنت من بناتي ترغبون؟

قال العسكري: ابني وقع اختياره على زينب، وهو -كما تعلم- صاحب عمل مكسب، وهو- كما ترى- جاد في اتمام الطابق العلوي, يكفي أن توافقوا ليتم الطابق حيث تستقر العروس وعريسها قريبا منا ومنكم".

رد "حمدان" بعد سكوت وتفكر: " أنت لم تفكر في بناء الطابق الثاني قبل الأول وأنا لا أفكر في تزويج بنتي الصغرى قبل الكبرى".

ويبدو أن "العسكري" كان واثقا من نفسه فرد بنبرة لم ترق "حمدان" : "يا سي حمدان عقلي يقول لي بأنه من مصلحة الآباء أن يطيعوا أبناءهم أحيانا حتى لا يفعلوا من وراء ظهورهم ما يقبلونه مكرهين."

فأجابه "حمدان" : "ليفعل الأبناء من وراء ظهورنا ما يفعلون, سنرى, لك عقلك ولي عقلي."

وفترت العلاقة بين الرجلين, وبدأ الفتور يسري إلى الأسرتين بعدما فترت العلاقة بين الرجلين؛ "حمدان" مصر على رأيه رغم مفاتحة زوجة "العسكري" لزوجته في الموضوع، ورغم علمه أن بنته الكبرى لا تبدي اعتراضا على زواج أختها، "والعسكري" متى قلبت معه زوجته الأمر، ناصحة له أن يعيد الطلب في أدب وتكيس، قال لها " البنات كثيرات" أو: "حمدان لا يصلح لي صهرا" أو "سبحان الله، بناته ستة أربعة منهن في سن الزواج ولم يتقدم إليهن واحد من الحي! "

و"سالم"، الذي وصلته وتصله كل التفاصيل ،يطوي مشاعره متحيرا، يفكر في الشعرة التي تعيد الصلة بين أبيه و"حمدان"، لأن في ذلك ضمانا لما يرى فيه سعادته، وسعادته يراها في زينب. فكان كلما حدثه أبوه في أمر الزواج كلمه في تحفظ مقصود حتى أعرض الأب عن محادثته في الموضوع، وكان كلما استدرجته أمه للحديث بقولها: "الزواج

قسمة ونصيب فلا تتعب قلبك بالتفكير." سكت عنها متظاهرا بالإنصات، أو دارى مشاعره وجاراها في حديثها, حتى كان مساء قال لها: "أبي لم يعرف كيف يفاتح "حمدان" في الموضوع, كان واثقا من نفسه أكثر من اللازم، وكعادته ضبطني مرات وأنا في المعلاة وهي في حديقة دراهم نتبادل النظرات والبسمات والإشارات, وأنت صببت الماء في طين ثقته بنقلك إليه ما يدور بينك وبين زينب متى زارتك."

فردت الأم: "حمدان هذا لا يعرف أحد كيف يفاتحه في موضوع, رأسه عصية ووجهه المنقبض يفوت عليك أن تجد مسلكا إلى قلبه، سبحان الله لا أدري كيف خرجت من صلبه "زينب"، وجهها يفيض بالبشر والملاحة ولسانها يقطر شهدا!"

فتنهد "سالم" وتنهد ثم نطق بعد صمت وسهو: "حمدان لا يفهم الكثيرون حقيقته، ظاهره لا يدلك على باطنه دائما. لو عرف أبي كيف يفاتحه لزوجني صغرى صغرى بناته إن أنا رغبت فيها."

ولم تجد الأم ما تختتم به حديثهما الذي طال وتفرع الا ترديد الجملة المتداولة "قسمة ونصيب". ولم يجد "سالم" -وهو في الفراش- شيئا يملأ رأسه إلا الحديث الذي دار بينه وبين أمه. تمنى لو يقهر النوم جفونه الساهرة, لو يحمله الحلم مخترقا به هذا الحاجز الذي نصبه الأبوان بينه وبين "زينب"، والذي ما كان يتوقعه, وما كان يحسب له حسابا. "العلاقة بينهما نمت وتنمو نموا صالحا, لو أراد لجعلها جارفة، لكنه يؤمن إيمانا قويا برضى الوالدين وموافقتهم على الزواج, لأن ذلك فيه وقاية وصونا للمودة بين الزوجين وتوطيدا للعلاقة بين الأسرتين.. وافرض أنه أراد أن يكفر

بهذا ليفعلا من وراء ظهور الآباء ما يقبلونه مكرهين فذلك مستحيل, لأن "حمدان" في الامور التي تمس الكرامة يجب ويجب الحذر منه كل الحذر.."

بقي كذلك يعيد الأمور ويقلبها، باحثا عن الشعرة، حتى أطبق النوم على رموشه وقتا ليوقظه العطاس. أشعل المصباح، رأى العقارب تقارب الثالثة صباحا, انتبه فالتقطت أذناه عويل الريح.. عاوده العطاس، انتبه لتلتقط أذناه عويل الريح وأصوات بعض القطع الصفيحية والبلاستيكية فوق السطح, اشتم رائحة التراب والخشب، أحس بانتغاش في منخريه فأدرك أن الرياح شرقية. عاوده العطاس بسبب الحساسية، قام إلى الدواء، نشق نشقتين كما يفعل كلما حلت به نوبات العطاس. أحكم إقفال النافذة واستلقى على فراشه يتتبع عويل الريح الشرقية وزمجرتها واستجابة الأجسام المختلفة لها.. تبين وسط الأصوات صوتا غريبا: نباح "زيتونة" طاروسة "حمدان". أصاخ السمع، كان النباح غريبا؛ «الباب لا يطرقه أحد، وهي كلبة صيد وليست كلب حراسة ينبح لسماع الأصوات، أيكون الزلزا ل؟»

تواصل عويل الريح، تواصل النباح.. وأذناه جادتان في التقاط ذبذبات الصوت وعقله يحلل: «النباح جاف يحد أحيانا ويحتد ثم ينكسر كالأنين. كأن بحلقها شوكا؟ كأن شيئا حارقا يلسعها؟ النباح متواصل مستمر يعنف في حدة ليخفت كالأنة، ستموت "الطاروسة" من النباح، وصاحبها ألم يسمعها؟ أم اختلطت عليه الأصوات بفعل الرياح المعولة؟»

شعر بيبس في حلقه وفي أنفه, أحس بهواء الغرفة يـــثقل,هم أن ينهض طلبا للماء فانشد إلى مكانه وشخص بصره وقد ومض في ذهنه خاطر: "الماء, الطاروسة ظمأى."

بعدما ارتوى صعد إلى المعلاة غير المكتملة. لم يفتح نافذة لأن البيوت كانت بها فتحات بلا نوافذ. أطل من فتحة على حديقة حمدان، تبين تحت ضوء القمر الشاحب المكدر بيت زيتونة وهي تمد عنقها مدا تريد فك الطوق, ونباحها لا ينقطع. أدام النظر والتحديق وقتا ثم نزل لينفذ ما اعتزمه.

وقف أمام باب "حمدان"، شرع يدق دقات معدودة ثم يتوقف. وكان يعرف أن عليه أن يطرق الباب طويلا, فالباب الأصلي للدار كان من الجهة الأمامية, فلما استحدث المخزن تضايق "حمدان" من بعض الأمور المستحدثة فنقله إلى الجهة الخلفية لتطول المسافة بينه وبين غرف الدار. زد على ذلك أن "حمدان" هو الوحيد الذي يخرج للطارق ليلا, يخرج متأخرا إن كان الطرق باكرا، فما بالك بطارق يطرق الباب والساعة قد قاربت الرابعة صباحا؟

استأنف "سالم" طرقه بحدة، وهو لا يشك أن طرقه قد وصل إلى بعض الجيران.. أخيرا تبين بعض التغيير في صوت الطاروسة ووقع أقدام تقترب من الباب, وصوت "حمدان" سائلا: "من؟ "أجاب "سالم": " أنا سالم, افتح يا سي حمدان."

فتح الباب, بادره سالم: "اسمح لي, كان واجبا علي إزعاجك, لم أستطع صبرا. "زيتونة" من ساعة تقريبا وهي تنبح نباحا غريبا, انها تموت عطشا".

التفت "حمدان" إلى بيت "زيتونة" وهي في نباحها وانتفاضها وسأل "سالم": "كيف عرفت ؟" .

بدأ "سالم" يشرح له وهو يستمع فاركا عينيه ليقول: "صحيح, إنها ظمأى، ولكن لا أدري كيف لم تسمعها "العفريتة ؟". "ثم انصرف عنه إلى "زيتونة" يغمغم, وبقي "سالم" ينتظر عودته متسائلا عن "العفريتة" التي لم تسمع "الطاروسة" ؟

وصلت إلى مسمعه "مطمطات" و"لقلقات" اللسان والطاروسة تلغ الماء ولوغا.. اشرأب بعنقه قليلا ليتراءى له "حمدان" معتمدا على عقبيه قرب "زيتونة" ورأسها مشدود إلى الماء تروي غلا كاد يصيبها بالسعار. فترت أصوات اللسان المتلاحقة ,وصله صوت "حمدان" يكلم "زيتونة" ثم لمحه ينتصب متجها صوب الباب. تنحى جانبا حتى أطل عليه قائلا: "مازلت هنا؟" رد "سالم": "تركت الباب مفتوحا, لم أرد أن أنصرف حتى تغلقه. " قال هذا وبقي متسمرا في مكانه كأنما ينتظر شيئا, و"حمدان" ساكت يحك رأسه إلى أن قال: " كادت تهلك، هذا الشرقي ألهب الجمر في أحشائها, أنا نمت متأخرا, وحتى عندما أسمع منها صوتا يدل على حاجتها إلى الماء غالبا ما لا أنهض, لأن "العفريتة " هي التي تنهض لتتولى أمرها, لكن لا أدري كيف لم تسمعها "العفريتة هذه الليلة؟".

سأله "سالم" بصوت خافت:" من هذه "العفريتة" يا سي "حمدان"؟

رد "حمدان" متكلفا خفض صوته مجاراة لسالم: «هي "زينب" يا "سي سالم."

خفق قلبه خفقات متسائلا كالهامس: "عفريتة! زينب عفريتة!»

فتابع "حمدان": "بناتي كلهن لا يستطعن الخروج إلى الحديقة ليلا إلا هي, هي الوحيدة التي لا تخاف أن تصل إلى بيت "زيتونة" ولو كان الليل بلا نجوم وبلا قمر."

رددت شفتا "سالم" هامستين: "سبحان الله! سبحان الله!" سأله "حمدان" عما يهمس به فقال: "لاشيء, لاشيء، المهم يا "سي حمدان" أن "زيتونة بخير, ونحن "يا سي حمدان" جيران, جيران في كل الأحوال."

وهم بالانصراف لكن "سي حمدان" استوقفه بصوت اشتم فيه أمرا يريد إبلاغه له.. استدار نحوه مقبلا عليه بكليته، يصغي إلى صوته في اهتمام وترقب ترتعش له دواخله: " اسمع مني كلمة كثيرا ما رددها أبي على مسامعي، وسأظل وفيا لها, كان يقول لي: " الجار الذي قلبه على كلبك وبهيمتك أمَنَةُ على أهلك." صبحتك بالخير."

تزاحم الكلام في صدره وتدافع في حلقه وما استطاع لسانه الإمساك إلا بجملة "صبحتك بالخير" خرجت من فيه كالتسبيحة. وولى إلى باب دارهم ،حتى إذا دخله لم يملك نفسه من أن يلتفت صوب جاره فأ لفاه ماسكا بدفة الباب. وفي هدوء أغلق كل بابه عليه..

ترك "سالم" المصباح مشتعلا واستلقى على الفراش ينتظر انبلاج الصبح الوشيك. أما "حمدان" فكان المصباح مشتعلا في مطبخ داره. قصده فإذا "زينب" واقفة كأنها تنتظره، بادرها:

- "أيتها العفريتة, أنت مستيقظة و"زيتونة تموت عطشا؟"

قالت وهي لا تنظر إليه:" يبدو أني سمعت نباحها متأخرة, نهضت وحين وصلت إلى الحديقة كان الطرق على الباب فعدلت عن الخروج منتظرة أن تقوم."

قال الأب:" ومنذ قمت وأنت هنا قائمة, كان عليك أن تكوني في فراشك منذ مدة ؟"

سكتت البنت تحاصرها نظرات الأب, لكنها سرعان ما فكت الحصار بقولها: "فكرت أن أمي عما قريب ستستيقظ لتعد لك القهوة باكرا كما اعتادت, فقلت أنتظر عودتك لأهيئها لك."

تفرسها الأب مرددا: "عفريتة, عفريتة.. أنت تعرفين أني لا أتناول القهوة إلا من يد أمك. " سكنت وسكتت حتى قال لها: " الطارق هل عرفته؟"

خفضت بصرها لا تجيب, فقال: "طبعا عرفته. وهل عرفت لماذا طرق الباب؟"

لم يسمع منها جوابا فتابع: "الطارق سمع "زيتونة" تعوي وسط الريح الشرقية, قدر مدى ظمئها, لم يستطع قلبه صبرا فجاءنا طارقا لنتداركها. ها قد عرفت الآن ما وقفت من أجله ساعة في المطبخ, انصرفي إلى بيتك."

خطت خطوتين فأوقفها قائلا كالمتدارك أمرا : " لا, لا أعتقد أن هذا هو كل ما أوقفك هنا طيلة هذا الوقت, هناك أمر آخر, أذكر أني قلت للطارق كلمة سبق لجدك أن قالها لي كثيرا : قلت له: "الجار الذي قلبه على كلبك وبهيمتك أمنه على أهلك."

فارتمت البنت على كف أبيها، أخذتها بقوة، قبلتها بقوة، ثم انصرفت.

جلس "حمدان" على كنبة في المطبخ يتأمل الأواني.. بعد قليل تستيقظ زوجته لإعداد القهوة كالعادة. فكر في زوجته, غلبه الابتسام, وضع كفه على فمه كتما لضحكة تريد الانفلات, ثم أزاح كفه لتتحرر الضحكات خفيفة, وليحدث نفسه -عن قصد- بصوت مسموع: ".. أسرعي, أسرعي يا امرأة, هذا الصباح ستقدمين لي فنجان القهوة كعادتك، وأنا على غير عادتي، سأهدي لك طبقا من الزيتون الدسم الأصيل جنيته من "زيتونة" وقد هبت عليها ريح شرقية..."

سيدي يحيى الغرب
.1996/9/28

موحا "أرابـــــــيســـك"

<u>المشهد الأول:</u>

عاد "الحوس" من وكالة المكتب الوطني للماء الشروب إلى داره. لم يعد راكبا أو راجلا بل عاد قنبلة مقذوفة من الوكالة لتنفجر وسط الدار: لطم الزوجة حتى ارتطم رأسها بالباب، رفع مكنسة كسرها على ظهر إحدى بناته، رمق ابنه اليافع يتابعه في هدوء فانقض عليه ونطحه حتى أدمى أنفه, مرقت من جانبه بنت ثانية تريد السطح نجاة بنفسها فرماها بمطرقة انكسر نصلها على الحائط, خرج أحد أحفاده من المرحاض يعدل سرواله في براءة فركله ركلة انفتق لها السروال من خلف، وصرخ منها الحفيد صرخة واحدة، قطعت كل السلالم في سرعة الضوء! تلقت البنت الكبرى ،وكانت على السطح في زيارة عائلية مع أبنائها، ابنها وأختها بصيحة متسائلة :" واويلي آشنوا هذا؟"
فصاح فيها "الحوس" من المسفلة: واويلي أنا, هزي "الباكاج" ديالك وسيري لداركـ؟"

فانطبقت شفتا البنت على بعضهما.. وأطبق الصمت على عائلة "الحوس"، بعضها منجحر في مكان من المسفلة، وبعضها محاصر في السطح, ولم تعد تسمع الا تأوهات حفيد تفسد على الجد استعادة أنفاسه وقد وقف وحيدا في صحن الدار..

استشعر سؤالا يتلجلج في صدور الجميع: "لماذا فعل فيهم ما فعل؟ "فأرعد يغطي صوته على بكاء حفيده:

"هل ترك لي أبي "الفيرمات", واش أنا عندي مال قارون واش أنا هارون واش "الحوس" بياع الزيتون يقدر على ثمانية ألف ريال يعطيها لأصحاب الماء؟؟ "

وعندما سمعت الآذان الجواب عن تساؤلات الصدور أطلت الوجوه بتضاريسها على "الحوس"، وهو في مكانه نار ودخان ،فبادرته الزوجة وقد انتفخت وجنتها: "لست الوحيد, كل الجيران مثلك أو أكثر."

وساندها الابن اليافع وقد حشا أنفه بالقطن: "مكتب الماء نفخ رأسك فجئت لتتفخ وجوهنا."

فقاطعه "الحوس":" اسكت, اسكت وإلا نفختك كلك.أنت وأخوك تجاوزتما الفتيات في غسل الشعر, أخواتكم يغسلنه مرتين وأنتما تغسلونه ثلاثة, وفي كل يوم تمرمدكم الكرة وفي الدار تصبنون على حساب "الحوس". والتـــفت إلى زوجته: "وأنت, أنت يا "الشارفة" أصبحت لا تقدرين على غسل الدار إلا و"التيو" في يدك، وتقضين وقتا بلا حياء تصبين الماء على ساقيك ورجليك المكمشتين, والأواني أصبحت أنت وبناتك تضعنها تحت الصنبور وتفتحنه لتتركنه يغسلها بنفسه."

فردت الزوجة على استفزاز زوجها:" والو، والو، لم تقدر على أصحاب الماء فجئت تطفئ فينا غلك وغيظك." فصاح "الحوس": "سترين، سترون هل "الحوس" يقدر على أصحاب الماء أم لا يقدر, أقسم يمينا بالله لن يأخدوا مني ثمانية ألف ريال. هم قطعوا الماء أنتم موتوا عطشا ووسخا."

فإذا الصمت من جديد يطبق على الدار, وإذا الصدور يتلجلج فيها نفس التساؤل.. "صحيح أن "الحوس" عنيد، زوجته تعرف هذا وأولاده يعرفون ذلك, والحي بأكمله يعرف أن "الحوس" من منطقة جنوبية يتميز أهلها بسخونة الدم، وبالعناد، وبجدية متطرفة تجعلهم يقبلون شيئاأو يرفضونه رفضا. ومنطق "الحوس" لا يقبل و يرفض رفضا فاتورة بثمانية ألف ريال، ولكن كيف الاستغناء عن ماء الصنبور؟ وكيف للحوس ألا يؤدي الفاتورة, كيف له أن يقدر على أصحاب الماء ،على مكتب وطني؟"

لم يجرؤ أحد على السؤال, "والحوس" لم يطلعهم على ما في ذهنه المشتت، كل ما كان أنه اختار برميلين من التي يخزن فيها الزيتون، يسع كل منهما مائة لتر، وأقفل الباب وراءه بقوة لتنحل الألسنة وراءه بالأسئلة والانتقاد..

المشهد الثاني:

لم يخطر على بال "الحوس"، وهو يقصد موقف "الكروسات" ،أن صديقه الحميم وابن بلده "موحا" سيلتقي به في الطريق. سلم "موحا" وحيا أحسن التحية فرد صاحبه التحية في فتور. نظر موحا إلى البرميلين الفارغين وإلى رأس صاحبه العارية الحليقة، رأى الكدر يلبد وجهه فقال مداعبا: آبلادي, ما الخبر؟ هل تنوي أن تبيع هذين البرميلين في "الجوطية؟" اشترينا منك."

فرد "الحوس" بعدما تخلصت يداه من الحمل ولم يتخلص وجهه من الكدر:

- موحا ، الدم ساخن، "البرمة" تغلي, فلا تزد النار.

ويجيب "موحا" متضاحكا:

- لا نار ولا دخان ولكن أفرغ" البرمة" حتى ترتاح.

- الحوس: ماذا أقول لك، قبل قليل قمت بحرب في الدار: لطمت ولكمت, نطحت وركلت وصرخت، ولم يبق أحد في الدار إلا وفيه أثر من "الهيشة" التي لبستني.

- موحا: ياساتر، يا ساتر، ولم كل هذه الحرب ؟

- الحوس: تسألني أنا, اسأل أصحاب الماء؛ من مدة جاءتنا الفاتورة بمبلغ ثمانية ألف ريال, قلت فيها خطأ, ذهبت إلى المكتب وشكوت باللسان وبالقلم، اليوم رجعت عند "الشاف" لأرى الأمر فقال لي: "لا تتعب نفسك، الأداء أولا ثم الشكاية." فحمي دمي وأقسمت ألا أؤدي، فأقسم "الشاف" في برودة أن يقطع عني الماء, فأقسمت ألا أؤدي ثمانية ألف ريال لأني لم أستهلكها. فأقسم ليقطعن الماء عني حالا وبنفسه . وسبقني بمعية عامل على السيارة إلى الدار للتنفيذ، ووصلت أنا إلى الدار لا أدري كيف، ثم كانت الحرب..

وسكت الرجلان وقتا.. "موحا" يقدر الخسائر ويبحث عن خطاب مناسب، "والحوس" يمرر كفه على رأسه الحليقة، ويجاهد نفسه ليفرغ شيئا ما بقي عالقا في قعر "البرمة" حتى نطق : "كلهم، كلهم يستحقون ما أصابهم مني، كلهم إلا ابن ابنتي، ركلته ركلة "خايبة" أعوذ بالله." فقال "موحا" متأملا رأس صاحبه العارية الحليقة: "هكذا اذن، نطحت الولد حتى طارت الطاقية! السلامة، وماذا تنوي الآن؟ الماء عنك مقطوع وثمانية ألف ريال لابد من أدائها، آبلادي، سواء كنت بائع زيتون أو بائع فول."

فرد "الحوس" بنبرة شديدة كأنه يواجه خصما:" والله وبالله لن يأخذوا مني ثمانية ألف ريال".

– موحا:" ومن أين لك ولأولادك بالماء آبلادي؟"

– الحوس: "آخذ "كروسة"، أبحث عن سقاية عمومية بالدوار، أملأ برميلين كل يوم، وفي ذلك كفاية للحلوف."

فكر "موحا" وقتا وهو بين مستغرب ومؤيد لقرار صاحبه، ثم قال بنبرة فيها إشفاق: "ستتعب ستتعب آبلادي." ثم عدل طاقتيه على رأسه وقال بصوت المخلّص: "عندي حل ،عندي حل آبلادي."

ـ الحوس : ما هو آبلادي ؟

ـ موحا : أحفر لك بئرا وسط الدار.

اتكأ "الحوس" بمرفقه على أحد البرميلين من المفاجأة، أطرق برأسه وقتا ثم نطق وهو في اطراقته: "البئر؟ البئر؟ لم لا أحفر البئر؟ ولا يأخذون مني ثمانية ألف ريال."

ورفع وجهه إلى صاحبه متابعا: "ولكن يا "موحا" عهدي بك تبني البيوت بالطين والقزير، تحفر الحفر لتعجن من الطين اللبنات، وتحفر الآبار في البوادي أو داخل المساكن الصفيحية، فكيف لك أن تحفر بئرا وسط مسكن من حجر، ضيق أشد الضيق؟ "

فأجاب "موحا" وهو يسوي الطاقية فوق رأسه للمرة الثانية : "اسمع، إذا كنت تعني شيئا ما فلا تنس أنك اشتغلت معي أعواما حتى عفا الله عنك بفضل الزيتون و"الصودا"، وإذا كنت تقصد أني غير قادر على حفر بئر وسط دارك فأنت

مخطئ، فصنعة زمان انتهت والآن أخوك صانع و"مْعَلَّمْ" "أرابيسك"

تفرس "الحوس" وجه صاحبه يقيس مدى جديته فوجده جادا كل الجد فقال متعجبا:

"معلم" أرابيسك "! ما معنى معلم" أرابيسك "!

ـ موحا :"ملعم أرابيسك يعني.. يعني.. فنان، فنان، أوف يا "لحوس" ألا تتابع مسلسل "أرابيسك".

فعاد "الحوس" يتفرس وجه صاحبه، لا ليقيس جديته بل يستشف تحامقا واستخفافا توجس منهما، ثم قال وهو يتحاشى النظر إلى صاحبه، موقعا على كلامه بنقرات على البرميل:

"أوه، فهمت، أعرف "أرابيسك" ،شاهدت بعض الحلقات منه، ولكن أحد الأصدقاء وفر عني عناء المتابعة وحكى لي كل شيء عنه لأنه يملك "البرابول". وما أذكره جيدا من كلام هذا الصديق أن المعلم والفنان "أرابيسك" أراد أن يصنع شيئا في دار عريضة واسعة فهدمها عال على سافل، والظاهر أن هذا ما يريد "موحا" فعله بداري الضيفة."

فتململ "موحا" يرد ببعض الحدة : "آلحوس"، "أ ُو هُو" "نُو "نْ"، لا ترم علي المعاني، قلت لك أنا "معلم أرابيسك" يعني "أرابيسك". وماحكاه لك الصديق وقع في السينما أما أنا فأعمل في الواقع.وعلى" أيــتهــا"حال تريد بئرا دائريا أو مربعا بالدلو و" الجرارة" أو بأنبوب يصعد الماء؟ أنا في الخدمة. تريد الماء من السقايات العمومية؟ هذه براميلك وتلك "الكروسات". تريد أن تدفع ثمانية ألف؟ مكتب الماء قريب. ولا ترم علي معانيك."

ولم يكن في ذهن "الحوس" المشتت متسع للتفكير فطأطأ رأسه وترك لسانه يقول: "صدقناك يا "معلم أرابيسك" نحفر البئر ولكن نتفق على الثمن."

فرد "موحا" باعتزاز وأريحية: "قلت لك أنا" معلم أربيسك"، يعني الفلوس من بعد، المهم أن تعطيني تسبيقا أقدمه لمن سيعينني والباقي بعد الخدمة، إن أعجبتك أعطيت وإن لم تعجبك شيئا لن أسألك."

- الحوس: ومتى يبدأ " أرابيسك" ؟

- موحا (بعد تفكير):" اليوم جمعة لا حديث عن العمل، غذا السبت وبعده الأحد يومان مناسبان، مراقبو الرخص يكونون في رخصة، "وعليه وبه" سنبدأ العمل يوم السبت باكرا لتشرب ماء البئر يوم الأحد بعد صلاة العصر."

وتصافحا الرجلان، "موحا" امتطى دراجته متوجها إلى الدوار. "الحوس" تابع سيره وسط برميليه يقصد موقف "الكروسات".

المشهد الثالث:

صباح السبت، بعد ثلاث ساعات من النقب والحفر، امتلأ صحن الدار بالتراب، وخلت الدار من أهلها إلا "الحوس" وزوجته: الأبناء هربوا، كبيرهم قبل صغيرهم، عند خالهم. والزوجة ظلت تقيم بالسطح وقتا ثم تنزل السلالم خلسة لتطل على ما يحدث مولولة، فينهرها "الحوس" فتطلب السلامة من الله وتدعو لزوجها بالهداية، فلا تسمع من طبله الانفس الصوت: "سترين هل يقدر "الحوس" على أصحاب الماء أم لا يقدر، والله والله ريال من الثمانية مني لن يأخذوه، احفروا."

لكن الحفار المساعد لـــ"موحا"، بعد الساعات الثلاثة، يقول لمعلمه: "يا " أرابيسك" لم يعد متسع للتراب، ما أرميه بالمجرفة يعود ليسقط على رأسي."

فترتسم علامة التفكير على وجه "موحا" وقد وقف بجانبه مساعده الثاني، و "الحوس" في أسفل السلالم قرب الباب الخارجي يختلس النظر إليه، وهو ينقل بصره من الحفرة وقد كف فيها الحفار إلى التراب المكوم الذي يحيطها، لينفخ شدقيه متأففا: " أوف أوف، ضيقة، الدار ضيقة!"

ولم يكن هذا يحتاج تفكيرا وبرهانا، كما غمغم بذلك "الحوس، فالدار بطولها وعرضها لا تزيد عن ستين مترا مربعا عليها ثلاث غرف ومطبخ وكنيف، وما بقي فارغا صحن طوله ثلاثة أمتار وشبر، وعرضها أمتار ثلاثة إلا أشبارا، وفي مركز هذا الصحن أمر "موحا" بالحفر! ويسترق "موحا" نظرة إلى صاحبه، وقد بدأ يتململ في مكانه ،فيقول له بلهجة آمرة: "لا يمكننا أن نخرج التراب إلى الزنقة، سنثير الشكوك، والحل أن تفرغ لنا أكبر غرفة من الأثاث لنرمي فيها التراب" فيتلقى "الحوس" الأمر وهو غير قادر على دفعه مغمغما: "رحم الله الذي حكى لي عن "أرابيسك".

فيجيبه "موحا" وقد استشعر باطن ما يعنيه: "أفرغها ولا تكثر علي من المعاني."

ويكتم "الحوس" غيظا جارفا يفجره في رفع الأثاث من غرفة الضيوف ليرميه والمساعدين، كيفما اتفق في الغرفة المجاورة، والزوجة تطل في حيطة على زوجها تناشده جاهدة: "إن لم يهدك الله فدعني على الأقل أساعدك في

ترتيب الأثاث، حرام إفساد الدار وإفساد الأثاث في وقت واحد."

فيزمجر مفرغا فيها كل الغيظ: "إذا ظهرت لي رميت بك في هذه الحفرة ودفنتك حية، كل هذا بسببكم".

حتي إذا فرغت الغرفة فرك" موحا يديه وخاطب مساعديه: "الآن انتهى العمل بالمجرفة، عليكما بالحبل والقفة، أنت تحفر وتملأ القفة، أنت تخرجها وتفرغها في البيت، وبعد ساعة تتبادلان العمل."

قال هذا بنبرة واثقة وهو ينفض يديه ثم أشعل سيجارة ونظر إلى "الحوس" يستشف وقع كلامه في وجهه، لكن "الحوس" تحاشى النظر إليه، وصرفه بحركة من يده تعبر عن خيبته فيه، ثم انزوى قرب الباب الخارجي المغلق مقتعدا أول رتبة من السلم الصاعد إلى السطح. كان الإرهاق باديا عليه، فحضن جبينه بكفيه مستسلما لحديث النفس غير عابئ بموحا وبمساعديه وهما بين حافر تردد الدار صدى معوله، وجرار يملأ بالتراب النصف المتبقى من البيت، حتى زوجته التي قبعت في آخر رتبة من السلالم لم يجرؤ على نهرها وهي تدمدم، بل لم يجرؤ على النظر إليها طويلا. تكوم على نفسه وكل ردود أفعاله أصبحت من داخله إلى داخله:"..ماذا أصابني، لماذا فعلت في داري ما فعلت؟ سيقولون عني بخيل وهذا كذب.سيقولون عنيد تسكنه جنون العناد وهل أنا عنيد ومسكون بالعفاريت إلى هذا الحد؟ ولكنه الظلم، الظلم يجعلك عنيدا معفرتا، إذن هو الظلم الذي فعل بي هذه المصائب.. ظلمني أصحاب الماء.. مئة درهم نؤديها، مئة وخمسون درهما نؤديها، ثمانية ألف ريال هذا ظلم، ويقول لك الناس:

برد دمك واطلب حقك بالطرق المعقولة، وهل أنا لم أفعل هذا؟ وماذا كانت النتيجة: أدٌّ ثم آشْكْ. أي حق هذا؟ الحق هو ما تأخذه في حينه " شنان طنان"، أنا لا أظلم أحدا، ولا يجب أن يظلمني أحد ولو كان مكتب الماء... وأهلك ألم تظلمهم؟ آه آه آه أيكون هذا ما يؤلمني ويحرقني؟ أصحاب الماء ظلموني هذا لا شك فيه، وأهلي إن كنت ظلمتهم فليتحملوني فهم دائما يظلمونني ودائما أتحمل؛ كلهم يريدون الأشياء حاضرة جاهزة ولا يسألون من أين تأتي، والان هاهم كلهم هربوا الا زوجتي، الا زوجتي،حلال حلال بنت حلال.."

وفيما هو يستعيد لطمته لزوجته صرخت هذه الأخيرة صرخة انتفض لها" الحوس" واقفا ليجد نفسه وجها لوجه مع أحد المساعدين يريد فتح الباب الخارجي فأمسك به مستفسرا: "ماذا هناك، ماذا وقع؟ "ثم تركه يصارع الباب وهرع الى صحن الدار ليرى "لمعلم موحا" منحنيا على فوهة "البئر" يصرخ في الحفار بصوت مذعور ليخرج بسرعة، فسأله: "هل هو الماء؟" فرد في حنق: "لا لا ماشي الماء، الحائط بدأ يتشقق ألم تسمع صوته؟"

فمسح "الحوس" أقرب حائط إليه بعينين زائغتين لتستقرا على موضع فرت عنه الاسمنت حتى بانت اللبنات.. تسمر في مكانه لا يعرف هل يهتم بالحائط أم بالرجل الذي في "البير" أم بالباب الذي يرج رجا تحت الخبط من الداخل ومن الخارج حتى أسرعت الزوجة وعالجت القفل بمفتاح كان معها.ولما فتح الباب تراجع المساعد إلى الوراء أمام هجوم أبناء "الحوس" يتقدمهم خالهم.

أمر الخال أخته بسد الباب وخاطب "الحوس" بصوت جاف: "كنت ستهدمها لولا ستر الله. اسمع، ثمانية ألف ريال حلفت ألا تؤديها سأسددها أنا والحساب فيما بعد. وأنت يا "موحا" هذه الهاوية التي حفرت تردمها وتدكها دكا، وأيكما امتنع خرجت في الحال وبلغت عنه المخزن."

لم يعترض معترض لا باللسان ولا بالإشارة إلا أحد المساعدين قال في استعطاف ممزوج بالتذمر: "منذ السادسة ونحن نحفر ولم نأكل شيئا." وتساءل ال"معلم موحا" : "وهذا الحائط هل نتركه هكذا حتى يسقط فوق رؤوسنا."

فأمر الأخ أخته أن تصعد إلى السطح وتهيئ بعض الأكل، وخاطب " موحا" كما يخاطب المعلم صبييه: "افعل ما قلت لك، الحائط لا شأن لك به، أنا بناي وأعرف حرفتي جيدا."

"الحوس" ظل صامتا، كل عين تقع على عينه لا يغنم صاحبها غير الاشمئزاز حتى استقر بصر زوجته في بصره فلانت ملامحه، فتحركت الزوجة إلى بيت عادت منه بجلباب وسلهام تسلمهما منها واتجها إلى الباب. تبادلا نظرات وكلاما هامسا ثم خرج "الحوس". فجاء الأخ وسد الباب سائلا أخته:

"رأيتك تعطينه الجلباب والسلهام ورأيت كأنك تقولين له شيئا، إلى أين هو ماض؟ "

فردت الأخت: "عندما يقع في مثل هذه الحالة يقصد إما "سيدي حرازم" أو "مولاي يعقوب"، هذه المرة سألته وسألته فلم يزد على قوله: " لا أعرف لا أعرف."

استشعر الأخ في حديث أخته عطفا فقال متعجبا: "وتدافعين عنه، ووجنتك منتفخة والحائط كاد يسقط".

فغضت بطرفها إلى الأرض وقتا تتجنب الجواب ثم صاحت في الأبناء وقد تجمعوا في السطح: "اثنان منكم ينزلان ليحملا برميل الماء إلى السطح، أبوكم جاء به على "الكروسة" ، أنتم احملوه على ظهوركم!" فانصرف عنها إلى "موحا" يذكره: "وأنت لن تخرج وأصحابك من هنا إلا بعد ما تعود الدار كما وجدتموها لأقوم بمهمتي بعد ذلك."

.. نظر "موحا" إلى مساعديه نظرة أمر وتنفيذ، ونظر إلى الخال نظرة واثق من نفسه لم تسعفه الظروف ولم يعترف بعد بهزيمته، ثم جال ببصره في الدار ليقول: "الحقيقة أن هذه الدار إما يجب أن تهدم ليُحفر البئر ثم تُبنى وإما كان على "الحوس" أن يحفر البئر أولا ثم يبني الدار ثانيا، هذا هو الفن الذي يمكن "الحوس" وأمثاله من مواجهة أصحاب الماء.".

فعقب أحد مساعديه وهو يهيل التراب في الهاوية: إيه، ومن يفهمك يا "أرابيسك"؟، من له عقل "موحا أرابيسك !؟".

سيدي يحيى الغرب:
1995/01/12

"التــربــيــقــة"

كان اليوم سوقا، وكنت واقفا قرب باعة الدوم والبرادع والحصر، أتابع نشاط "العرافات" والفقهاء" كتبة الطلاسم والتمائم: تنتقل عيناي بين الخيام بألوانها الخضر والحمر، والمجامر داخلها ينبعث منها البخور مصحوبا بالصيحات، ثم يستقر بصري على خيمة "الفقيه" الذي سد عليه المدخل بالستارة مخالفا باقي "الفقهاء"! كنت أريده واستنكفت من أن أقتحم عليه خيمته، فقد أعتدت أن أناديه من بعيد بإشارة مني فيأتيني ليسلمني صُرَيْرَةً من "النشوق" أو "السعوط" بالعربية المقعرة أو "التنفيحة" بالعربية الفطحاء.

وبينما أنا في أمر صاحبنا، الذي تعددت صنائعه، متحير أرقب متى تنزاح الاستارة، وقعت عيني على بدوي غير بعيد من الخيمة يقهقه ويطخطخ، وقد ذهب به الضحك كل مذهب، فانفتح فوه إلى أقصاه، وفرت شفتاه عن أسنان صفراء وسوداء كان بإمكاني عدها رغم المسافة بيننا.كان الجوحارا، والجفاف أعراضه بادية في السوق ،فقلت في نفسي: "يفعلها الجفاف، "الزلطة" تبكي حتى تضحك.." ولكن لما انتبهت إلى أن بصر الرجل مستقر على خيمة الفقيه، وأن الخيمة محجوب مدخلها عما بداخلها طنت الظنون في رأسي، فتسمرت عين من عيناي على الرجل، وهو يمسك بطنه من الضحك ويلطم فخذيه، بينما انشدت العين الثانية إلى الخيمة وقد بدأت جوانبها تتحرك، ثم تهتز، والرجل انثنى بجذعه يكاد يسقط أرضا، متماديا في الطخطخة. ثم هوت الخيمة بركائزها و"حُمَّارها" فخرج من تحتها وجه

أفطح استوى جثة بكرش يضيق عنها الجلباب، وتبعه رأس ملفوف في "شدادة" دكناء، تحتها وجه ملفوح لامرأة قصيرة تتعثر في أذيال ثوبها المهلهل، وبقي مستورا جسم احتواه خيش الخيمة المتهاوية فبدت هيئته غريبة مثيرة. ظهور هذا الجسم على حقيقته كان أمرا حاسما في تساؤلات المتجمعين ونظراتهم إلى المرأة و"الفقيه". فسارع البدوي يغالب ضحكه، وأزاح الخيمة عن عجلة سوداء عجفاء مضطربة، حول عنقها حبل من دوم وربقة من صوف، وخارج جلدها عظام ناتئة.

انشغل "الفقيه" ببناء خيمته منتفخا، واقتربت من البدوي مع المتحلقين وهو يجيب أحدهم: "هذه المطموسة هي زوجتي، لم يسبق لها أن جاءت إلى السوق، ويوم جاءت جاءت بالعجلة "ثْرَبَّكْ ليها.."

"وانشغلت وقتا بكلمة "التربـاڭ" والفعل "ربـڭ" يعني "ربق" ومنه "الربقة" والمقصود تميمة توضع حول العنق دفعا للشر،" فيما تابع البدوي:

"وعلاش؟ خافت عليها من العين، كل عجلات "الدوار" "ساط" فيها الجوع إلا هذه.. والمصيبة: المطموسة مزلوطة، ما عندها فلوس، فجاءت بالفروج الوحيد لتهديه للفقيه مقابل "التربـيـگة"، ولكن والله وبالله لن يدخل كرشه."

حين سمع صاحب "الحروز والتربيقات" قسم الرجل انتفخ ورد عليه: "أنت أقسمت بالله لن يدخل كرشي، وأنا أقسم بالله ثلاثا بالفروج لن تفرح، وإياك ثم إياك فقد يصلك

مني ما لا يخطر لك على بال." فأزاح البدوي قب الجلباب عن رأسه ،ثم أزاح شدادته وصاح: "هذا رأسي عار بين الرجال، (وحدج زوجته بنظرة نارية) متابعا: "والله، إن عدت إلى الخيمة مساء ولم أجد فيها الفروج ما أنت بائتة تحت سقفي ليلة واحدة."

وما إن سمعت المرأة الوعيد حتى انقضت يدها على الديك، وهم الفقيه أن ينتشله منها فلطمته به على وجهه حتى تطاير بعض الريش، ثم دفعت بعجلتها أمامها والفقيه يناديها وسط ضحكات المتحلقين: "أعطني ثمن "التربيقة" أو رديها، "التربيقة" بلا " فتوح" باطلة."

أما الزوج فكان يعدل شدادته ويشيعها بقوله: "والمدوخة، بعدما تصلين خيمتك انزعي الربقة من عنق العجلة وضعيها حول عنق كلبنا "بوبي" لتحفظه من العين."
ثم تقدم هاجما حتى وقف على رأس الفقيه، وهو دائخ مرتبك اختلط عليه كيف يعيد نصب خيمته، وقال له: "تريد" الفتوح"، في السوق المقبل ستأتيك بكلبنا "بوبي" ليفتح بطنك."
واتضح للمتحلقين المتفرجين أن الفقيه لم يبق عنده ما يطيل الفرجة فتظاهروا بالاشفاق عليه، وتدخل بعضهم بأريحية لا تخلو من خبث يبعدون البدوي مرددين ما يقال في مثل هذه المناسبات: "مر مدت الرجل، سودت وجهه، الغالب يعف، الله غفور رحيم.."

شدني السعوط الذي كنت أشتمه تحت جلباب الفقيه. انزويت غير بعيد من مكان الحادث، وقفت مدة غير قصيرة حتى نصب الفقيه خيمته، وحتى كفت حركة الفضوليين حولها. التحق بي خلال ذلك صديق يريد "النفحة". انشغلنا

بالحادث أقصه عليه. لم يخرج الفقيه من خيمته، اقتربنا من الخيمة عازمين على مناداته، حينذاك سبقتنا امرأة بقفتها ودخلت الخيمة. وقفنا، سمعنا الرجل يقول لها بغلظة : "ما عندي ما أعطيك، بيعي القفة وتسوقي بثمنها، لقد رأيتك تتفرجين علي، كل ذلك بسببكم، ما عندي فلوس، خذي جراءك واغربوا عني".

لم نتبين ما ردت به المرأة على زوجها، ما سمعناه كان صفعة مدوية خرجت على إثرها المرأة دائخة تتعثر بدون قفة.

سيدي يحيي الغرب.
2000/01/07 ....1993/05/05

- نشرت بجريدة "العلم" بتاريخ 16 ماي 1993.
- وقع فيها تعديل.

البـــاب الثاني

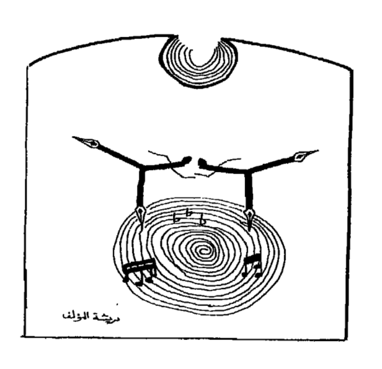
المقـــصـــصة:

*لعنة الشعـــــر

*الميتـــــا ببغـــاء "!

*"الزعبـــول" : هذا المتوحش النبيل!

*"بوجعـــران "ابـــن بيئتـــــه



لعنـــة الشــعــر

منذ مدة وأنا أفكر في نوع من الكتابة نقرأه من حين لحين في الجرائد وفي المجلات، يتميز بكونه جنسا من الكتابة بلا اسم، فلا هو قصة أو أقصوصة، ولا هو مقال أو خاطرة، إنما هو مزيج من هذه الأجناس، ترى فيه ملامح القصة، وتلمس فيه تحليل وتقريرية المقال، وتأخذك منه ومضات الخاطرة وشاعريتها. فإذا أردت أن تطلق اسما على هذا الجنس فرت عنك التسميات واختلطت عليك الظلال، فتزهد في التسمية مكتفيا بعنوان الموضوع أو بعنوان العمود..

هذه الحالة إذا كانت لم تراودك قط فإنها تلازمني، لأني متى وجدت نوعا من هذه الكتابة قرأته بشغف كبير، ولأن مزاجي يميل ميلا قويا إلى الكتابة فيه. غير أني متى توفر لدي نص من هذا النوع لا أجد لتسميته إلا المتداول من التسميات : قصة – مقال – خاطرة– فأعرض عن تسميته "قصة" احتراما لتلوينات القصة وسطوحها الزئبقية، وإن فكرت في "مقال" أو "خاطرة" أحجمت تهيبا من شموخ المقال وصرامته، وإشفاقا مِن رهافة الخاطرة ورقتها.. ولكن تفكيري في الموضوع لم ينقطع.. فكرت ونظرت فوجدت أن أنسب تسمية لهذا الجنس من الكتابة هو "مَقَصَصة". قد ترى في الأمر هزلا ولكن رب هزل أجد من الجد. فقد تتبعت مادة (قص) في "لسان العرب" علني أجد هذه الصيغة فما نلت المراد، ولكن في الجزء الثالث من كتاب "النحو الوافي" عثرت على بغيتي: فقد قرأت في الصفحة 325 أن صيغا

كثيرة لاسم المكان قليلة لاسم الزمان من مصدر الثلاثي وردت مختومة بتاء التأنيث للدلالة على تأنيث المعنى المراد من الكلمة.. وفي الصفحة 326 قرأت أن مؤتمر المجمع اللغوي القاهري في دورته الثالثة والثلاثين من يناير 1967 أباح زيادة التاء للتأنيث في "مفعلة" كصيغة للمكان مطلقا.

وأخالك متسائلا مستخفا: صدقناك يا "جني" زمانه و"عفريت" عصره في جواز اشتقاق "مقصصة" من الفعل (قص) فما علاقة "المقصصة" صيغة للمكان بجنس الكتابة الذي دوخت الرؤوس بالحديث عنه؟

والجواب أجوبة أرجو صبرك لقراءتها: فمن ذلك أننا اعتدنا في أساليبنا الحالية استعمال صيغة "مفعلة" للدلالة على المكان كـــ "مخبزة" و "محلبة" و "ملبنة" كما نستعملها للدلالة على الحدث والفعل كـــ "مذبحة" و"مجزرة"، فعندما تقول "وقعت مذبحة" لا يكون المقصود هو المكان إنما المقصود هو فعل "الذبح"، وكذلك الشأن في قولك "تفرجت على مجزرة" وفي قولك "أصبحنا مسخرة".. وقياسا على هذا وجدت أن الدلالتين معا (المكان والحدث) تجتمعان في صيغة "مقصصة"؛ فهي هجين من أجناس كتابية يتخلله القص، الذي يشد القارئ، والذي غالبا ما يتم في مكان هو المقاهي المتجاورة المتلاصقة، حيث يستهلك مع السيجارة والشاي أو القهوة السوداء في جلسة واحدة. فهي بهذا أشبه بالمقامة في القياس الزمني والقياس الصرفي. و "المقصصة" ،كجنس من الكتابة، قابلة للازدهار لجملة أسباب: منها كثرة المقاهي، واقتصار سواد روادها من القراء على الجريدة، وظرفية المواضيع التي يتناولها الكاتب بأسلوب قصصي سهل، يعتمد

فيه على القص المبطن بالنكتة، المعطر بالدعابة ،بعيدا عن تعتيمات القص الحديث وتلفيقاته.

أما بعد هذا التمهيد، الذي أرجو أن يكون صدرك ووقتك قد اتسعا له، فأدعوك إلى قراءة هذه "المقصصة":

"يحكى أن أعرابيا جمع يوما أمتعته وامتطى راحلته ثم قال لزوجته:

عدي السنين لغيبتي وتصبري * ودعي الشهور فإنهن قصار *[1]

فردت الزوجة:

اذكر صبابتنا إليـــــك وشوقنا * وارحم بناتك فانهن صغار *2

فنزل الأعرابي عن ناقته وقد عدل عما اعتزمه."

هذا ما قرأته، أما ما أوحى إلي به عفريتي بعد القراءة، فهو أن "جـــحا" المغربي –أقول المغربي– لأن لكل بلاد عربية وإسلامية جحاها؛ فهناك "حجا" المصري، و"جحا الشامي"، و"جحا التونسي"، ولا تكاد تجد بلدا عربيا أو بلدا تحضر بالحضارة الإسلامية تخلو أدبياته من نوادر "جحا"، حتى الترك لهم "جحاهم"، وكل بلد يريد أن ينسب "جحا" إليه. غريب أمر هذا الرجل، وغريب أن البلاد الانكلوساكسونية ليس لها "جحاها". ليتني أدري ما الشخصية التي تماثل "جحانا" في ثقافة هذه البلدان؟.. ما علينا، قلت: "إن" جحا المغربي عشق امرأة تروي الشعر فتزوجها لشعرها. وكانت تسمعه الجميل من الشعر، حتى إذا كثر عياله، ولم تتحسن أحواله لم يعد يسمع منها إلا الأبيات اللاذعة والأراجيز الساخرة. وطال ذلك حتى فكر "جحا" في أن يخالط الشعراء لعله يجد ما يرد به على زوجته. ودأب على مخالطة جماعة

منهم حتى أصبح يروي بعض الشعر، وحتى سمع منهم يوما بيت الأعرابي ورد زوجته، فسحره الرد وعن له أن يفعل مثل ما فعل الأعرابي. لكن "جحا المغربي" لم تكن له ناقة ولا جمل، كانت له "كروسة" وحمار، تعطلت "الكروسة" وبقي الحمار يتقي ظهره الحاد بحلس. وذات يوم من أيام الله السبعة وضع الحلس على ظهر حماره، بينما زوجته تنهر رضيعا أوجع ثديها اليابس، فنظر إليها وأنشد:

"عدي السنين لغيبتي وتصبري * ودعي الشهور فإنهن قصار"

فردت زوجته على السليقة :

خلِّ الحمارَ أنيسَ أرملة، حــرا * مٌ أن يهاجر بعل وحــمار –[3]

فاستاء "جحا المغربي" من الرد واغتاظ، وكان المنخاس في يده فرمى به الزوجة، لكن المنخاس المشؤوم أخطأ الزوجة وأصاب أنف الرضيع.. فزع "جحا" من صراخ الوليد ففر.. حتى إذا نال منه الجهد والعناء جلس تحت شجرة وأخذ يفكر، يقلب الأفكاروالأفكار تقلبه و"تشقلبه" إلى أن وجد نفسه "برادا" "يشرشر" بصوت مسموع:" اللعنة على الشعر في هذا الزمن، في زمن ما كان "جحا" إذا وقع له ما وقع لي قصد واليا من الولاةِ أو قاضيا من القضاة وحكى له ما وقع، فيضحك الوالي وينفحه بصلة يستعين بها على أمره. أما الآن فمن أين لك بالوالي في هذا الزمان؟ ومن أين لك بالقاضي؟ ومن أين للشعرلهما، ومن أين لهما بالشعر؟ الآن يا "جحا" عليك بالطبيب، طبيب المستوصف العمومي، طبيب المخزن، طبيب الزلطة والازدحام والانتظار، ليسلمك ورقة تذهب بها إلى المستوصف العمومي في المدينة، وهنالك سيطالبونك

بشهادة، ليست شهادة الشعر، بل شهادة الضعف، شهادة الاحتياج، وهذه الشهادة لن تنالها يا "جحا" من "مقدم" الحومة حتى يمرمدك ويبهدلك، لن تنالها إلا بعد سبع ليال وثمانية أيام حسوما.."

وظل كذلك يحدث نفسه ويتصور العذاب الذي ينتظره.. وفجأة ومضت عيناه: "أنا لن أزدحم، أنا لن انتظر، هي تزدحم، هي هي تنتظر وأنا أحصل على الشهادة."

وفيما هو كذلك أحس بظل ما وراء كتفيه؛ التفت، وهو يهم بالوقوف، فاصطدمت عيناه بوجه يعرفه، ولكن لم يعرف من أين طلع وكيف طلع عليه في هذا المكان!؟ كان الوجه لواحد من الوجوه التي خالطها حتى ابتلي بالشعر.

تفرس "جحا" باستياء خصوصيات الوجه وهي تحاصره: بسمة التندر التي لا تفارقه، وفم خلا فكه الأعلى من الأسنان إلا من ناب واحد حتى لقب صاحبه ب "أبو ناب"؛ جاءه اللقب من سلامة هذا الناب من الحوادث، وجاءه من ولع صاحبه بالجدال والملاجة. وتضاعف استياء صاحبنا "جحا" وقد اشتم الخمر تفوح من فم "أبو ناب" الذي بادره: "منذ مدة وأنا أسمعك "تشرشر" بصوت مسموع. اعتقدت أنك تردد شعرا أوحي اليك تحت هذه الشجرة، ولكن خاب ظني..

وظل مسترسلا في الكلام، و"جحا" صامت، ساكن، يتساءل كيف طلع عليه هذا الوجه وفي هذا اليوم بالضبط؟:.. لقد أكلت وجهي بنظراتك، صمتك لن ينجيك مني، خلاصك في لسانك، لن تبرح هذا المكان حتى تقص علي الأمر الذي

جعلك تقعد تحت هذه الشجرة وتحدث نفسك بصوت مسموع."

أحس "جحا" بالكلام يختلط في صدره، يتدافع ويتنازع، يصل إلى حنجرته ثم يرتد.. وأخيرا نطق بنبرة المغلوب المستسلم:" هذا قضاء، هذا قضاء نزل علي في هذا اليوم."

وترك لسانه يحكي لصاحب الناب كل ما حدث بتفصيل.. حتى إذا أنهى ما عنده وجد " "أبو ناب" يمسكه من دقنه برفق، وصدره يهتز من الضحك، ليقول له:" أيها الشويعر، هل علمك أسيادك الشعراء القوافي لتستغفلهم؟"

فرد "جحا" مستغربا:" ما معنى أستغفلهم، وفيما أستغفلهم؟"

فضغط "أبو ناب" على دقنه ببعض القوة قائلا: "زوجتك لم تقل (حرام أن يهاجر بغل وحمار)

بل قالت "بغ بغ بغل وحمار" بالغين بالغين أيها الشعرور "فانتفض جحا صارخا: بل قالت بعل وحمار "بالعين بالعين أيها المدعي."

اتسعت بسمة التندر في وجه أبي ناب، وقال بثقة: "أعلى مثلي تجوز هذه الألاعيب؟ أراهن، أراهن بهذا الناب الذي أقهر به خلق الله على أنها قالت بغ، بغغ، بغل وحمار"

فقال جحا:" وأنا راجع إليها، سأسأل وأتحرى.

قال "أبو ناب" ضاحكا بسخرية: "وماذا في وسعك فعله إذا وجدت كلامي صحيحا؟ "

قال جحا: في هذه الحالة، المنخاس الذي أصاب أنف ابني سيكسر أنفها."

قال "أبو ناب" باستخفاف مستفز: "لن يصيب المنخاس إلا عين ابنك التعس، هذا إذا وجدت منخاسا."
قال "جحا" : إن تأكد لي ما ادعيته، ولم أجد منخاسا، فبيدي هذه أكسر خيشومها(قال هذا وكور قبضته.)
نظر "أبوناب" إلى القبضة المكورة وقال متماديا في استخفافه:" وماذا في وسع هذه الأصيبعات أن تفعل ؟"
فرد "جحا" بعصبية غير متوقعة: "في وسعها أن تفعل هكذا" (قال ذلك وهو يوجه لكمة إلى فم "أبوناب") الذي صاح وأمسك فمه وقتا، ثم بسط احدى كفيه ملطخة بالدم والبصاق وفي بطنها الناب، آخر قلعة في الفك الأعلى..
سكتا وقتا يتبادلان النظرات، حتى نطق فاقد الناب: "أحلف، أقسم قسما لارجعة فيه أن أحمل هذا الناب إلى طبيب الدولة، وشهادة منه أحملها إلى مركز الشرطة ستجعلك أمام أمرين: أن تعوض الناب أو تحبس بين الحيطان. تأكد أنني سأجعلك أضحوكة وأمثولة، سأمرمدك حتى تلعن اليوم الذي ولدت فيه، وحتى تلعن اليوم الذي عرفت فيه الشعر."

وطوال الوقت الذي كان فيه "أبوناب" يتوعد كأن لسان "جحا" مشلولا، غائصا في حنجرته، حتى وجد رجليه تتطلقان به، وبعض المتجمعين يتابعونه بنظرات التعاطف، بعدما تبينوا ان خصمه مخمور. وكان، وهو في الطريق، يسرع، يبطئ، يتوقف وقتا.. وخلال كل ذلك لم يكن الحديث في نفسه يهدأ: ".. لماذا لا أفعل في نفسي شيئا وأحصل أنا أيضا على شهادة طبية من طبيب الدولة، هكذا تكون لي شهادتي مقابل شهادته، هكذا نكون متعادلين ؟، هذا يعني ما معناه أن العذاب تضاعف: شهادة من طبيب الدولة المخزنية

بلا فلوس لابد لها من شهادة "مقدم" المخزن تشهد بالضعف والاحتياج.. آه.. آآآه قالوها عن الدجاجة "مَا حَدْهَا تْقَاقِي وَهِيِ تْبِيضْ" وقالوها عن النملة: "إذا أراد الله تعذيبها جعل لها الأجنحة."

.. لم يفقه من سرحانه إلا ارتطام رأسه بعمود كهربائي. ارتد من الصدمة إلى الوراء موشكا على السقوط، تماسك نفسه، صعَّد بصره في عمود مصباحه متكسر، ثم جال به في كل الجهات حتى اصطدمت عينه بلافتة شدت أمام مدخل قاعة كبيرة كتب عليها:

"أسبوع الشعر.. ملتقى الشعراء من.. إلى.."

فخطر في نفسه خاطر: "قد يكون الفرج داخل هذه القاعة، قد أجد بعض الوجوه، بعض الأحباب، أحكي لهم ما أنا فيه لعلهم يتدخلون، لعل بعضهم تتحرك أريحيته فيجود علي بما أفك به عن نفسي من "أبوناب" اللئيم.."

قصد القاعة يتحسس أثر الصدمة على جبهته وصدغه وأنه.. وقف أمام المدخل. كان هناك شخصان يتحدثان في نرفزة بادية.. أحدهما لم يعره ذرة من اهتمام، بل أشاح عنه بوجهه، والثاني لم يزد اهتمامه به عن اهتمام الأول في شيء إلا في اختلاس النظر إليه وهو يدخل إلى القاعة. لم يكن صاحبنا "جحا" في حاجة إلى إصاخة او استراق السمع، فقد كانت القاعة فارغة، وكان في أصوت الرجلين تذمر يفرغانه وكأنهما فوق خشبة المسرح:

قال أحدهما:" شعراؤنا الفحول كلهم اعتذروا!

رد الثاني: "علموا باعتذار الشاعر الفحل وزير الثقافة فحذوا حذوه!

قال الأول: ما يؤسفني هو أن القاعة غاصة بالجمهور المتعطش، ولا فحلا من الشعراء وراء المنصة يسقيهم!"
استجاب الثاني بصفير طويل، ضمنه كل ما في خاطره، ثم نطق متأففا، مكورا قبضتي يديه:
"ماذا تنتظر هذه اللجنة، تنتظر ماذا لتحضر وترمي لنا بفرنكاتنا لـــ "تُزَكْرِمَ" هذا الباب، ونرتاح من هذه البهدلة؟؟ يريدون الجمهور، هاهاي، " ماكاين شطيح ما كاين جمهور".
فرد الثاني بنبرة ساخرة لا تخلو من استلذاذ لاستياء صاحبه:
"لا تبالغ، لا تبالغ، هناك جمهور، جمهور متعطش، ألق نظرة داخل القاعة.." وألح على صاحبه: "ألق نظرة، لن تخسر شيئا."
فمال صاحبه –على مضض– بجذعه إلى الداخل.. ترك بصره يجول كيفما اتفق، لكنه استقام في وقفته وقد وقعت عينه على "جحا" غارقا في كرسي وسط ا لكراسي الفارغة، يحدق في منصة حفت بكراسي فارغة، توزعت فوقها سبورات ورقية تحمل أسماء لشعراء!
ناداه –في البدء– مصوتا: "هوه". فما التفت "جحا". ثم ناداه صفيرا فما تململ وما استجاب. فتدخل صاحبه، الذي ألصقه الفضول بالجانب الثاني للباب، يتابع المنظر، وصاح:
"سبحان الله! سبحان الله! الرجوع لله! ماذا ترى على المنصة؟"
رد: جحا "وهو في وضعه، بصوت فيه تقطيع، وفيه تمديد يتردد بوضوح في القاعة الواسعة الفارغة: "الدجاجة تقاقي، والنملة تطير وتسقط."

التفت الأول إلى صاحبه، كمن مسته كهرباء، وقال: "قد تكون في الرجل بركة من بركات الشعر!"
وجاراه صاحبه: "وما يدريك، وما يدريني أن منطوقه قد يكون تعبيرا عن حال شعرنا؟؟"
وانشغلا معا –في انتظار اللجنة– يرددان حسب الايقاع الذي اتفق لهما:
("الدجاجة تقاقي ، النملة تطير وتسقط..") حتى وقف عليهما "أبوناب" فكفاوصاح أحدهما: "أبوناب" رائحتك وصلتنا قبلك؟
وبادره الثاني: "افتح فمك وأرنا نابك لنتأكد من هويتك."
لم يفتح فمه بل بسط كفه المقبوضة ليريا في راحتها الناب.
سأله أحدهما:" من فعل فيك هذا؟"

فوصف لهما "أبوناب" الفاعل وصفا دقيقا. وباتفاق تخاطري وجد رأسيهما يوجهان إلى داخل القاعة، وعينهما تصوب إلى حيث سبق أن رأيا "جحا" جالسا، لكن "جحا" لم يكن في مكانه، كان في طريقه إليهما بعدما وصل سمعه "أبوناب".. وقبل أن تلقى عليه كلمة سارع يقص عليهما النادرة من بدايتها.. لم تحجب عنهما الضحكات مدى الصدق في لهجة المحدث. "أبوناب" استشعر ذلك فصرخ في وجه "جحا": "حقي لن يضيع، لقد أقسمت لك على ذلك، لن تنفعك المسكنة."

الرجلان فطنا إلى مافي رأس "أبوناب"، تبادلا نظرات تحمل ما فطن إليه كلاهما، فناب أحدهما عن صاحبه وخاطب "أبو ناب": "اسمع يا "بوناب" نحن في انتظار اللجنة لتصرف لنا فرنكات مقابل اسبوع من الأتعاب،

بمجرد ما نتسلم الفرنكات نطير إلى الحانة، ولك علينا أن نسقيك حتى تنسى نابك وتنسى "جحا".

سكت "أبوناب" وقتا يتنازعه الطمع والممانعة ثم قال:

" وإذا لم تحضر اللجنة ؟ وإذا حضرت ولم تعطكم فرنكا ؟ أنا أعرف اللجان..

أجاب الثاني في ملل، وفي تضايق من النقاش في الموضوع ومع صاحب الموضوع:

"إذا حدث ما قلت نعطيك الماء تصب بعضه على بطنك، وبعضه تضع فيه نابك وتحتسيه."

ووقع صاحبه على كلامه: "يا هذا الرجل، كن حليما بعض الشيء. هذا الرجل لم يقصد، هذا الرجل درويش من الدراويش ابتلاه الله بمخالطة الشعراء بدلا من مخالطة المتصوفة. ولا تنس أن في صدغه وأنفه انتفاخا، يعني أن ما ستأخذه الحانة يمكن أن يأخذه طبيب من أطباء الدولة.." وكان هذا كافيا ليطرق "أبوناب" بكل رأسه إطراقة مغتاظ مكره، وليخرج "جحا" يشيعه الصاحبان بترديد: "الدجاجة تقاقي والنملة تطير وتسقط."

في الطريق أحس، في استغراب، أنه يتصل بالعالم الخارجي كأنما كان منقطعا عنه: سمعه يلتقط الضجيج والهدير ، انفه يشتم الغبار والدخان، عينه ترى الناس غادين رائحين، قابعين في المقاهي، مسترخين، مبحلقين.. ترى الصبية المتسخين، ماسحي الأحذية وبائعي السجائر، تنشد الى عربات تجرها حمير، أو يدفعها أشخاص، محملة بالخضر أو بالفواكه.. فينتبه إلى أنه جائع جوع الصائم فيهزه حنين إلى البيت، حنين ينازعه الجزع! ويواصل السير

يحمل النزاع في صدره؛ يفكر في عربة معطلة، يأسى لحمار جائع صابر رغم أنفه، يتحسس أنفه فيتساءل عن ابن لايعرف أمرا عن أنفه، ويجزع من زوجة سليطة: ما عساها تقول لو طلب منها طعاما، وماذا يكون ردها إن هو ركب رأسه بدل حماره وقال لها:

"الدجاجة تقاقـــي، والنـــملة تطـــير وتســـقط."???

✦

سيدي يحيى الغرب
2007/2/17..... 94/3/5

- البيتان (1-2) لشاعر لا أذكر اسمه
- البيت (3) للمؤلف.
- نشرت هذه المقصصة بجريدة "أنوال" تاريخ 94/3/05 وقع فيها تعديل.

"الميتـــا-ببغــاء"!

في الثامن عشر من شهر غشت 1991 نشر بيان وبلاغ بالتعذيب الذي تعرض له الشاعر المصري "محمد عفيفي مطر" من قبل سلطات الأمن المصري، بسبب موقفه المتعاطف مع العراق، خلال الهجمة المغولية التي شنت عليه. وقد تضمن البيان وصفا مختصرا بقلم الشاعر لأنواع العذاب الذي كابده، منذ بداية مارس، حين طوق الكبل معصميه وعصبت عيناه وحمل لا يعرف أين، حتى تم الإفراج عليه في الثاني عشر من مايو 1991 وفي رأس الشاعر أورام، وتحت جفونه صديد، وفي النفس أهوال لا تتسع لها اللغة.. من جملة هذه الأهوال أن المعذبين كانوا يرغمون شاعرنا على تناول عقار بمقدار "برشامتين" أكثر من مرة في اليوم، وهذا كان يحدث له -كما جاء في البيان- اضطراباً شديدا وهلوسة.. أمر هذه "الهلوسة" شدني وشدني طويلا حتى غشيتني الغاشية، وخيالي غرق في قتامة من الفظاعات والبشاعات، ووسائل التدمير والالغاء للروح الشاعرة ! ولم أدر كيف وجدتني "أهلوس" وأفكر في "هلوسة" صاحبي "كِبْـــرِيتْ" وهو أيضا شاعر، لكن الفرق بينه وبين "مطر" أن هذا شاعر معروف وصاحبي "كبريت" شاعر مغمور، وأن السلطة التي عذبت "عفيفي" وأرادت إيصاله إلى "الهلوسة" تملك الحديد و النار والكيمياء وكل الوسائل، أما السلطة التي عذبت "كِبريت" فلا تملك نارا ولا حديدا ولكنها "هلوست" صاحبي ودون "برشامات"!.. لم أر صاحبي منذ افترقنا إلا مرة واحدة. مدة فراقنا قاربت العشرين سنة.

والمرة الوحيدة التي لقيته فيها كانت في القطار. خلالها استعدنا ذكريات الدراسة بالثانوي، وذكرته بالتعب الذي كان يسببه لأستاذ اللغة العربية في تقطيع البحور، وما يرتبط بذلك من زحافات وعلل، وذكرته بالمتعة التي كنا نجدها ونحن حوله نصغي إلى محاولاته، نصفق ونتأوه.. وكان أكثر ما يفتـــننا مقطوعاته الساخرة التي كان يسميها تارة "الزفت الأبيض "وتارة" القنابل المسيلة للدموع"! وعدت به إلى كثير من التفاصيل حتى قال لي: "إني منكب على ديوان شعر لا أهدأ عن تنقيحه، ولا أريد أن أغامر بنشره قبل أن يطلع عليه بعض المهتمين بالأدب والنقد. "ثم فرقتنا محطات القطار لأراه بعد سنين في محطة الحافلات. تعانقنا حتى دمعت عينانا، ولما استعدنا هدوءنا سألته:

– ماذا تفعل هنا؟

فأجاب: "هوايتي الجديدة: أقف في المحطات، أرى ما يفعله الناس ببعضهم، وأسمع ما يتقاولونه." فابتسمت قائلا: "يعني، شاعرنا يبحث عن الخواطر ؟"

لاحظت بعض الانقباض في ملامحه، وهو يسألني متحاشيا الاستجابة لما أردته:

– وأنت فيم قدومك وإلى أين ذهابك ؟

– جئت لغرض إداري لم يقض، وأنا راجع إلى بيتي لأعود غدا.

فأمسك بكتفي قائلا: "لن تعود إلى البيت، ستذهب معي إلى بيتي وتقضي الليلة معي، وفي الصباح تذهب إلى غرضك."
رفعت يدي أطلب العفو: "يا أخي اعف نفسك واعفني، لا داعي للاحراج، يكفي أن نشرب قهوة في هذا المقهى."

طوق عنقي بذراعه ودفعني قائلا: "لا تخف، أنا وحيد في الدار، ليست لدي زوجة أخبئها عنك أو أخبئك عنها، ستكون حرا طليقا، تدخل البيوت والمرحاض والمطبخ من غير استئذان."

وظل يطوقني بذراعه ويدفعني وأنا مندفع وهو يتكلم: "ولكن وحدتي ليست مطلقة، فأنا أعيش مع "روحي".

فتوقفت أتأمله متسائلا: "روحي" ؟ من تكون "روحي"؟

فدفعني بذراعه وهو يضحك قائلا: "روحي" مخلوق ظريف، جميل، نابغة، ستعرف عندما تراه."

.. عندما دخلنا الدار أوقفني صاحبي "كبريت" أمام قفص كبير، هندسته بديعة، معداته منظمة بعناية فائقة، حول أحد قضبانه الأفقية انعقدت مخالب ببغاء يزهو في ألوانه الزاهية، ثم التفت إلي قائلا: "أقدم إليك "روحي"، أنيسي ورفيق وحدتي."

فصفق الببغاء بجناحيه يردد تحية المساء ثم تابع صاحبي: "كيف تجد "روحي" ياصاحبي؟"

أجبت مداريا بعض اندهاشي: "مخلوق جميل وظريف!"

وتابع صاحبي "كبريت": ونابغة، قد تكتشف نبوغه فيما بعد، أما الآن فاسترح ياصاحبي، سأهيئ لنا القهوة ثم نفكر في أمر العشاء، كل البيوت ملك لك، ادخل أيها شئت."

فقلت: "هذا بعض من امتيازات العزوبة."

خلال العشاء دعاني صاحبي "كبريب" لأشاربه الخمرة الحمراء فاعتذرت قائلا:

– كان ذلك منذ زمان، أما الآن فقد عافتها نفسي

فقال بعد أن احتسي كأسا: "لن أرغم ضيفي على شيء."

فقلت وهو يحتسي كأسه الثانية: "قبل قليل سألتك إن كنت تقف في المحطة لتستوحي الخواطر فتحاشيت أن تستجيب لسؤالي، لماذا؟"

– لأني عرفت أنك تريدني أن أحدثك في كتابتي للشعر، وأنا أكره وأمقت الحديث في هذا الموضوع."

– كيف يكره صاحبنا "كبريت" الشعر، وأنا شاهد على عشقه للشعر منذ زمان، وأنا أرى فوق المكتب وفوق الطاولة وفوق الفراش دواوين الشعر؟

– لم تفهم قصدي، قراءة الشعر أدمنها وبإفراط، أما كتابتي للشعر فهو الموضوع الذي أكره الحديث فيه، كلما سألني عن ذلك صاحب من أصحاب زمان أحسست بأمعائي تتقلب، وبدمي يحترق، وبالزجاج يتكسر داخل صدري! (وتجرع كأسا وأنا أتأمله مستغربا لأقول):

– لا أصدق، لا أصدق، "كبريت" لايكتب شعرا! لا أصدق هذا!

– عليك أن تصدق، "كبريت" أصبح عاجزا عن كتابة شطر واحد من الشعر، تفعيلة واحدة، ابحث في الدار بأكملها لن تجد قلما واحدا، وأرجوك لا أريدأن أقول أكثر من هذا.

"فحدجت صاحبي "كبريت" قائلا:

– اسمع يا صاحبي، أعرف انك رقيق رقيق لكن في مزاجك حدة حدة، وأنا..

فقاطعني: – أعرف أنك عنيد عنيد

– يسعدني أنك مازلت تتذكر صفتي القبيحة، وعليه إذا رفضت حديثي في الموضوع فأنا سألبس حذائي حالا

وأخرج إلى أي فندق أو إلى محطة القطار، ولن أبيت تحت سقفك.

أطرق صاحبي وقتا يفكر، وهو ماسك كأسا أفرغها، وظل يؤرجحها بأصابعه، ثم رفع إلي وجها معتكرا ليقول:

- أحدثك في الموضوع بشرط أن تشاربني.

- فليكن، وليغفر لنا الله.

وأخذت أشارب صاحبي "كبريت" وهو يحدثني كأنه مشتعل:

سألني: هل تذكر آخر مرة التقينا في القطار؟

قلت: نعم، وأذكر أنك حدثتني في ديوان شعر تنقحه لـــ...

فقاطعني: "عكفت سنوات أنقح وأغربل، وأشذب وأهذب، ثم حملت المخطوط إلى سيد مهتم بالأدب لينظر فيه. بعد ثلاثة أشهر ذهبت إليه فقال لي: "لم أتمكن من قراءة المخطوط بأكمله نظرا لكثرة انشغالاتي، وقد وضعته بين يدي سيد إلمامه بحقل الأدب كبير. "وانتظر صاحبك "كبريت" أربعة شهور ليخبره السيد الثاني أنه عهد بالمخطوط إلى سيد ثالث ضليع في الأدب، وكتاباته لها صدى في الصحف! فكظمت الغيظ وتكلفت الصبر شهورا خمسة حتى جمعتني والسادات ثلاثتهم الحانة.! وكان في رأس كل واحد منا ما يكفي من الشعير والعنب لتفوح الصراحة والحموضة والسلاطة بكل روائحها. قال لي السيد الثالث بعد ما حك ذقنه ومطط شفتيه:" الحقيقة وقتي لم يسمح لي بعد بقراءة المخطوط بأكمله، ولكن، على أية حال، ما قرأته أبان عن موهبة، والموهبة في البداية تكون في حاجة إلى دربة، اشرب، اشرب."

ونقلت بصري إلى السيد الثاني فقال لي: "اشرب." ثم نقلت بصري إلى السيد الأول فقال: "اشرب." ففاحت مني الحموضة وأنا أقول: "عجيب غريب، يكتبون عن أناس من "إسبانيا" و"أمريكا"، و"تشيكسلوفاكيا"، يكتبون عنهم بافتتان وانبهار، ويترجمون الفرنسية والاسبانية والانجليزية، وعن قريب سنقرأ ترجمات في" "الهيروغليفية" ! "فسكتوا عني، وطال الصمت والشراب حتى قلت للسيد الثالث بحدة: "من الحانة إلى الدار لتعطيني مخطوطي، وعلي أجرة" الطاكسي" فاستقام بعد ارتخاء ليجيبني بحدة وحموضة:

-" لا، لا، إلزم حدودك، أنا براء منك، شيئا لم تعطني شيئا لن أعطيك."

وأشعلنا السجائر فتدخل السيد الأول ليقول لي: "مخطوطك أنا الذي سأرده لك، كن مطمئنا."

وسكت صاحبي "كبريت" فسألته: "هل استرجعت مخطوطك؟"

– لا، لم أسأل عن أي منهم ولم يسأل عني أي منهم رغم أننا نتخالس النظرات في المقاهي!

.. عندما بدأنا نتهيأ للنوم قال لي صاحبي:

– إذا سمعتني أتقلب في الفراش أو أكلم نفسي استمر في نومك، ولا تهتم لذلك

فقلت وأنا أتثاءب:

– قد تزعجني بعض الوقت، لكن متى نمت لك أن تتقلب وتحدث نفسك ما تريد، لن أفيق لك، ما يفيقني هو ضوء المصباح إذا اشتغل.

فرد "كبريت" متضاحكا: "عجيب، روحك يا أخي ظلامية لست كـــ "روحي" الذي لا ينام إلا والمصباح مضيء حوله!

وسكتت عنه وسكت عني، ثم تحملت بعض الوقت تقلباته وغمغماته، ثم أخذني النوم.. ولم أدر كم مر من الليل حين أيقظني المصباح وقد اشتعل لأرى أمرا أخرس لساني: رأيت صاحبي "كِبريت" وقد خرج من فراشه واقفا مادا ذراعيه متوازيتين أمامه، ثم بدأ يسير بخطوات منتظمة نحو الباب ليفتحه.. فتسللت من فراشي أهم بتنبيه صاحبي، لكني أمسكت عن ذلك وقد ومض في ذهني ما سمعته عن "المتروبصين" أو "المتسرنمين"، يعني النائمين الماشين، وعن وجوب تجنب ايقاظهم وهم ماشون.. ترك صاحبي الباب مفتوحا فاندفعت وراءه حذرا أشد الحذر، لأراه يتناول كرسيا يجلس عليه قبالة الببغاء، ثم يخاطب الطائر: "روحي، اسمع يا روحي"

فاستقام الطائر فوق القضيب يصغي باهتمام إلى "كبريت" وهو يلقي عليه شعرا رنينه يملأ الدار.. أعاد إلقاءه مرات ثلاثة، أعاد الكرسي إلى مكانه، وقف ومد ذراعيه بتواز أمامه، وانطلق عائدا من حيث خرج، فسبقته إلى فراشي متظاهرا بالنوم. مَدَّ الغطاء عليه، ضغط على زر الإنارة قربه، ولم أسمع منه بعد ذلك تقلبا أو غمغمة!! بعد مدة قمت محترسا وأشعلت المصباح ليتبين لي أنه في سبات كسبات الصبية. قبل أن أدخل فراشي خطر لي أن أردد ما سمعته حتى أتأكد من حفظه ففعلت. ثم خطر لي أن أكتب ذلك حتى أضمن ألا يمحو الصباح أثر الليل أو يشوهه. بحثت عن قلم فما وجدت قلما. عمدت إلى معطفي، أخذت قلما وورقة سجلت عليها بعناية ما سمعته وما أسمعه "كبريت" لـــ "روحي". ولم يقهر لي النوم جفنا حتى استنفذ مخي كل

مخزونه من نظريات التحليل النفسي، واستحضرت ذاكرتي كل شبيه بالحالة التي عاينتها. لذلك طال نومي حتى أيقظني "كبريت". كانت ملامح وجهه وحركاته تدل على أن سباته مكنه من استعادة كثير من حيويته، اتضح لي ذلك وأنا أرى طاولة الإفطار جاهزة قرب القفص. أكلنا ودخنا ثم خاطب "كبريت" روحه:

"ماذا أعددت لي هذا الصباح يا "روحي"؟ أنشد، أنشد يا "روحي"

وشرع "روحي" ينشد بلغته الببغاوية، و"كبريت" يردد بعده موضحا الأصوات ممعنا في التوضيح:

" يا إخوتي بشراكمُو،
بعد الجفاف أتانا الثلج والمطر،
فمن هـشـاشـتها بيوتُنا "طقطقت"
ومن بشاشتها "بقبقتِ" الحفرُ.
والغيم من فوقنا
كالغمام في صدورنا،
تضاحكت له وجوهنا
ومن مدامعنا الشتاء "تنهمر."

كانت عملية غريبة معقدة: المردد يصبح ملقيا والملقي يتحول إلى مردد.. ولولا وقوفي على الحدث وظروفه، ولولا الورقة التي في جيبي لفاتتني هذه الأدوار الانعكاسية.

تلاقت نظراتنا بعد هذه العملية ليسألني كِـبريت:

– البارحة كنت تسأل عن الشعر، ما رأيك في هذا الشعر؟

– جميل، خفيف، فيه رائحة تسيل الدموع.

قال "كبريت" منتشيا موجها كلامه للطائر: "أسمعت يا "روحي" مازال في الدنيا من تصلهم روائح الشعر. "فسألته متكلفا البراءة: "أيسمعك "روحي" الشعر كل صباح؟

فأجاب بكل براءة: في بعض الصباحات ينشدني جديدا، وفي بعض الصباحات يكرر علي ما سبق أن أسمعنيه، وفي صباحات لا يأتيني منه جديد ولا مكرر."

– وكيف تفسر أن "ببغاء" يقول الشعر؟

رد بنرة فيها احتجاج وتصحيح: هذا الببغاء من فصيلة نادرة نادرة جدا، انه ليس ببغاء عاديا، بل هو "مِيتّا–ببغاء" أو بَارَا–ببغاء"

تركني أحلل كلماته وغاب ليعود وفي يده مظلة ناولنيها قائلا:

"خذ هذه، واخرج لغرضك، اما أنا فقد منحت التقاعد النسبي منذ مدة."

– ماذا أفعل بها؟

– ستجد المطر بالخارج، أما سمعت "روحي" وهو ينشد؟ ألقيت نظرة من النافذة على الخارج، أخذت المظلة قائلا:

– بل سمعت دمدمات الريح ليلا، مع السلامة، سأعود مرة ومرة لأسمع نشيد ال "مِيتّاببغاء" أو "البارا– ببغاء".

وخرجت تحت المطر ربحا للوقت. كان علي أن أقطع دربا طويلا لأصل إلى أول موقف للحافلات. كان الدرب ضيقا شديد الضيق، متسخا كثير الاتساخ، تكاثرت حفره وتقاربت، واختلط في مساكنه الغرائبية الصفيح والحجر والخشب والقش ومواد أخرى خارج التصنيف

..قدماي كانتا تتجنبان الحفر قدر الامكان، عيناي كانتا تختلسان النظر إلى وجوه ناس ذاقوا صفرة القحط طويلا، أذناي كانتا تصلهما بعض التعليقات عن المطر، وعن الغمام، وعن الرياح، وعن البيع والشراء.. وفي جيبي الأيسر، تحت التندأة بقليل، حيث قلبي ينبض، كانت أصابعي تتحسس، بين حين وحين،ورقة أسمع من خلالها "كبريت" و"روحي" ينشدان:

ياخوتي بشراكمو...

وفي رأسي كان سؤال يطن طنينا لازمني طوال الدرب، وظل يلازمني: "كيف أقنع "كبريت بأن يدون وينشر ما ينشده "روحي"؟، كيف أخرج "روحي" من القفص ؟؟"

الأبيات الشعرية للمؤلف.

نشرت بجريدة "أنوال" بتاريخ 1994/03/11 وقع فيها تعديل.

سيدي يحيى الغرب

20 فبراير 1994.. دجنبر 1999

"الزعبول" : هذا المتوحش النبيــل !

"الزعبول" : هكذا يسميه أكثرنا في سهل "الغرب"، وبعضنا يسمونه "الكرموس" مجاراة لأهل "البيضاء"، والبعض يحلو لهم أن يقولوا "الهندية" تشبُّها بأهل "فاس"، وقلة قليلة تسميه على الورق "الصبار" طلبا للفصيح والتفصح. أي التسميات أنسب؟ وايها أقرب إلى التحضر؟ لست أدري، ما أدريه أن كل ما نطق به أهل المغرب فهو من لغة المغرب، وما أدريه أن جميع التسميات لا تزيل عن هذه الفاكهة شوكها، وما أدريه – وأنا مقتنع به أشد الاقتناع– أن هذه الفاكهة المتواضعة هي سيدة الفواكه، وهي أنبل الفواكه بامتياز، من الناحية العلمية ومن الناحية الأخلاقية. وإذا اجتمع العلم والأخلاق في شيء فذلك أقوى برهان على السيادة والنبل.

فمن الناحية العلمية المرتبطة بخاصيات هذه الفاكهة، من حيث النمو والفائدة الغذائية، لست في حاجة إلى بحوث ومختبر لأقنعك بأن "الزعبول – الكرموس – الهندية" هي الفاكهة الوحيدة المسوقة التي تنبت وتنمو متوحشة اعتمادا على ذاتيتها: لا تغطيها "الميكا"، لا تستجدي السماد من بشر، ولا تنتظر منهم أن يسعفوها بالأدوية.. بل تأخذ الأشعة من الشمس مباشرة، وترتوي بالندى وبالمطر من السماء قبل أن تضمه جيوب الأرض أو يجري في أنابيب، وتستميت من أجل البقاء والحياة، صامدة في وجه الجفاف والسيول، مقاومة بأصالتها الحر والقر، لتختزن الرواء والسكريات حلاوة طبيعية، يتقبلها الجهاز الهضمي في يسر،

وتسري في سهولة عبر الجسم تنشر الشبع والحيوية. وما أكثر المغلوبين الممعودين والممعوئين الذين يجدون في "الزعبول" دواءا وغذاءا! وخير الدواء ما كان غذاءا، وتلك حجة بينة للزعبول.

هذا على المستوى العلمي، وعلى مستوى فواكه البر، أما على مستوى فواكه البحر فاني من الفئة "البورية" التي ليست متبحرة في فواكه البحور.

وأما فيما يتعلق بأخلاقية "الزعبول – الكرموس –الهندية"، سيد الفواكه وأنبل الفواكه، فبيني وبينك في الحديث عنه قصة "شائقة شائكة"، اصبر على شوكها وقشرها لتذوق الطعم والبنة، ولك بعد ذلك أن تقتنع بأخلاقية هذه الفاكهة أو تمتنع.

ففي حينا الشعبي اعتاد الناس، منذ سنوات وخلال كال صيف، أن تظهر في الحي سيارة أحد العمال المهاجرين حيث ينزل بداره ليقضي إجازته صحبة زوجته وأولاده الخمسة: أربع بنات وابن. كان ظهور هذا الإبن في حينا الشعبي يسبب لأطفال الحي مشاكل تتولد عنها موجات من التوتر يصل صداها أحيانا إلى الكبار: كان يستعلي عليهم مستمدا علياءه من فرنسيته، ومن بنيته المتماسكة، من ملابسه المتنوعة، وأحذيته الرياضية الغالية، ولعبه التي لايرون مثيلا لها إلا في التلفاز والصور.. يخرج لهم بسيارات كهربائية كبيرة، ثم يدخل ليعود بالرشاش والمسدس شتان بينها وبين "قشاوش" عاشوراء! ثم يجمعهم حول الآلة الموسيقية الالكترونية، حتى إذا مل من بحلقتهم وطلباتهم تركهم ليمتطي دراجته اليابانية أو الإيطالية.. يشاكس ويغيظ

الذين يحس منهم حقدا، ويغري ويلهث المتقربين منه طمعا في "دورة" أو في قرص من "الشكولاته" ما كانت جيوبه لتخلو منها! وعندما يلاحظ أن المستضعفين الحاقدين يكثر عددهم، وعدد المتملقين يتناقص، يخرج الكرة السحرية فيتزاحم الكل حوله، ويتربع صاحبنا على عرشه آمرا متحكما: يشكل الفريقين بالكيفية التي تضمن له النصر الساحق، وخلال المباريات يكون لاعبا وحكما؛ كل المخالفات لا تعتبر خطأ إلا بمصادقته، وتجده أكثر الفريقين صراخا وزعيقا، لا يسلم من لسانه خصم أو صاحب، وإذا ما انتقده أحد شتم بالمغربية وبالفرنسية، فإذا كثر المنتقدون هدد بأخذ كرته، وذلك ما كان أطفال شغوفون بـــ "الجلدة"، لا يملكون كرة جلدية، يحتاطون من وقوعه مقابل كل التنازلات.

وفي أخر سنة من سنوات الحاكم الصغير في حينا، هيأ له الله أسباب الصولة المطلقة وأسباب الانحدار الذريع في نفس الوقت! فسبحان القوي العزيز، خالق المتناقضات ومخرج النور من الظلمات! في تلك السنة – جامعة المتناقضات – ظهرت سيارة المهاجر في حينا.. ثم كان أن خرج "فاندام" كما لقبه الأطفال "إلى محكوميه وفي يده "ألبوم" صور يفرجهم على نفسه وهو لابس بدلة "كنغ بوكسينغ" وقال لهم، وهو يطوي الألبوم: "هذه السنة فزت بالبطولة" فطوى المقاومون المتمردون مشاعرهم وقالوا كما قال المتقربون:" أنت "الشاف" أنت فاندام رقم واحد."

وشاء رب العزة، الذي لاتخفى عنه خافية، أن يطلع في الحي، وفي اليوم نفسه، ولد خلف عربة ملأى بالزعبول.

تجمع الأطفال حوله مستطلعين مساومين فيما لزم "فاندام رقم واحد" مكانه منتفخا. كان صاحب العربة يبدو كالأطفال في الثانية عشرة تقريبا، لكن بنيته النحيفة كانت تخفي سنتين من عمره الحقيقي، وكان صاحب الألبوم يبدو في الخامسة عشرة، لكن جمسه الفائض كانت فيه نسبة ثلاث سنوات من التضخم. وسأل صاحب العربة الأطفال عن صاحب الألبوم فحدثوه حديثا ذا شجون..

فطلب التيسير من الله، وأخذ يناديه: "مسيو، مسيو، تعال تعال تأكل الزعبول، الهندية، كرموس النصارى "فيك بارباري" حلو، بنين، فيه الفيتامين."

تضاحك الأطفال من فرنسية صاحب العربة التي استفزت "فاندام رقم واحد"، فأقبل في خيلاء حتى حاذى العربة وركل العجلة ركلة خفيفة بحذائه "الريبوك"، فتلقى صاحب العربة الركلة بضربات من سكين وقعها على حاشية الطاولة مبتسما قائلا: "هل أقشر؟ حلو، بنين، فيه الفتامين."

ظل "فاندام" ساكتا ينظر إلى البضاعة والعربة وصاحبها في استعلاء.. وقلب صاحب العربة وجهه في الأطفال يغمزهم خلسة ليقول والبسمة لا تفارق شفتيه: "من منكم يستطيع أن يأكل أكثر من "الشاف؟" فنطق واحد: "أنا" وقال الباقون مثله، من ثانيهم إلى ثامنهم. فنظر صاحب العربة في صاحب الألبوم نظرة استفزاز وقال بنبرة مشبعة بالتحدي: "إذا صح أنك أنت "الشاف" فعليك أن تأكل من الزعبول أكثر مما يأكل هؤلاء جميعهم، ولكن رأسي تقول لي بأنك لن تقدر لأنك لست الشاف رقم واحد". واستجاب الأطفال متضاحكين، وتصافقوا بالكفوف وصاحب العربة يغامزهم.. فانتفخ صدر

صاحب الألبوم وتمايل ليخاطب صاحب العربة بالفرنسية: "أنا أستطيع فعل أي شيء عندما يروق لي ذلك!"
رد صاحب العربة: "لنتراهن، هؤلاء كل واحد يأكل عشر زعبولات، وأنت تأكل عدد ما أكلوا وتزيد عليهم واحدة أو نصفها، إن استطعت خسرت أناكل الزعبول المأكول، وان لم تقدر –ولن تقدر– أديت أنت ما أكلوا وما أكلت. هل معك النقود الكافية؟ أرني، كثير من الأولاد يأتون من الخارج وتكون جيوبهم فارغة." رد صاحب الألبوم بثقة وزهو: "قبلت الرهان، وهذه النقود" (وأراه ورقة من فئة خمسين درهما انتشلها منه صاحب العربة في خفة) وقال مبتسما: "هذا عربون كاف، كْرانطي، كن متأكدا أنك إذا ربحت رجعت إليك. والآن استعدوا: انتم تجلسون حَذائي على الرصيف مصطفين أقشر للأول عشرته وللشاف عشرته، ثم يتقدم الثاني حتى النهاية، هيا قولوا: "ربحنا المباراة." فضجوا جميعهم: "ربحنا المباراة "
وبدأت المباراة... بعد العشرة الأولى قال صاحب الألبوم لصاحب العربة: "كم على أن آكل ؟"
– ستأكل عشرة في ثمانية (وتظاهر وقتا بالتفكير) ليتابع: وتزيد واحدة او نصف واحدة، يعني بالفرسية (عشرة في ثمانية يساوي ثمانين زائد واحد يساوي واحد وثمانين) فرفع "فاندام" حاجبيه مغمغما ليبدأ العشرة الثانية..
عند ذاك حدث أن خرج الأب ورأى ابنه فخاطبه بالأعجمية: "إي شاف، ألا تصحبني ؟"

فرد الابن "الشاف": "نو، عندي "ماتش". فانصرف الأب إلى سيارته وهو يوصيه بالفرنساوية: "لا تأكل كثيرا حتى تقوم بـــ "ماتش" جيد."

بعد الزعبولة العشرين أخذ صاحب الألبوم يغير مكانه من العربة، وصاحب العربة يقول له: "الشاف يأكل من الجهة التي تعجبه، مر وأنا أقشر والحساب صابون.."

..وبعد الزعبولة الثلاثين أخذ "الشاف يتفوه بكلمة" ميرد"، وبعد الكرموسة الأربعين أصبحت كل زعبولة تدخل فاه تسبقها كلمة " الـــ "ميرد" وكل زعبولة يتناولها خصمه تسبقها "باسم الله"، ترددها الجماعة بإيحاء من صاحب العربة استجاب له الأطفال بسرعة. وعند الزعبولة الخمسين بان اليقين: احتقن وجه "الشاف" الأبيض الدسم، ولاحت طلائع الدمع في عينه، فولى الأدبار جاريا إلى الدار، والأطفال خلفه يتصايحون: "ربحنا المباراة".

أمهلهم "زعبيل" صاحب العربة وقتا ليطلب منهم جمع القشور ووضعها في جانب فارغ من العربة، ثم دفع بضاعته مرددا: "الزعبول، الهندية، زعيبلات أمولا وليدات، حلو، بنين، فيه الفيتامين."

امتلأت صدور الأطفال فرحا حتى ضاقت فزفوا الفرحة لغيرهم.. وفكر بعضهم في الكرة السحرية وبعضهم في "الشكولاته" الطرية، لكنهم تمسكوا بفرحتهم مرددين: "طز" في "البكالا"، "طز" في الشكلاط "طز" في الكرة، نلعب بالميكة.."

ولم يكونوا يدرون بالفرحة الكبرى التي تنتظرهم، والنعيم الذي سيحظون به، فالله الذي عنده الملك، وعنده

خزائن السماوات والأراضي، عندما يدحــر "الشافات" يشبحهم شبحا ويمرغ أنوفهم في التراب تمريغا: فبعد العشاء دخل "فاندام رقم واحد" المرحاض وخرج ثم دخل ليخرج ثم شكا ثم صرخ..
وسألته الأم فقال: "بطني توشك أن تنفجر ولا أستطيع إخراج شيء" وألحت الأم في السؤال فوصلت إلى الزعبول. وكانت الأم، رغم مقامها الطويل بفرنسا، ربة بيت. والبنات كن أمام حالة غريبة "وفاندام رقم واحد" يخرج الــ "ميرد" المحتبس في مصرانه ألفاظا نتنة من فمه.. يفعل ذلك وهو يطحن، يعض الوسادات، يشتم الحي والأطفال، وصاحب الزعبول، والبلاد التي تنبت الــ "فيك – بارباري ".. لكن كل ذلك لم ينجه من أن يتلوى قرب المرحاض، ودون سروال، صارخا: "بابا سأموت."
وفاته أن "باباه" كان مشغولا بيوم الأحد، لايعرف أحد أين يتجول ولا أين تقف سيارته! فاستغاثت الأم بالجارة التي قالت لها: "ان ولدك ممعوص: (يعني مصاب بالإمساك) ونصحتها بالتوجه به إلى مسكن الطبيب واضعة رهن اشارتها ولدا من أولادها. لكن الطبيب لم يكن موجودا بمسكنه، فأطباء البلدات الصغيرة لا تتسع لمقامهم هذه البلدات التي يطغى عليها طابع البداوة ببساطته ووضوحه.. أما مداومة الصيدليات ليلا في مثل هذه البلدات فأمر غير وارد! فعادت الأم تتعثر لتجد وحيدها يتلوى من الضر، وبناتها دائخات يتحركن بلا رأس.. هرعت إلى الجارة التي وجهتها إلى ممرض في الحي، قصت عليه الأمر فأتاها بقنينة فيها "فنيدة" واحدة قائلا: "هذه الفنيدة تسهل بعد ست

ساعات، وثمنها غال: مئة درهم". ناولته الدراهم المئة، وعادت بالحبة الوحيدة ليتناولها "فاندام" الوحيد، ويسكن بالمرحاض وقتا غير قليل،متصبرا ينتظر متى يرى الفرج، لكن أتاه صوت أمه وهي تحدث أخواته عن مفعول "الفنيدة" فجفل من المرحاض يصرخ: "ست ساعات؟ لا أستطيع دقيقة، أعطوني سكينا لأبعج بطني، سأصعد إلى السطح وأرمي بنفسي، ميرد ميرد، سأموت أوه بابا بابا... "

اندهشت البنات، وهن يرين ويسمعن أمهن تولول بلهجة مغربية أصيلة، لم يسمعوها منها من قبل! وكانت تهم بالاتجاه إلى الجارة فاذا بالجارة بالباب: هزتها الولولة فجاءت تهدئها وتقول لها: "لم يبق أمامك إلا "الحاجة": تولد النساء، تمسد المفدوعين، تجبر المكسورين، تداوي بالأعشاب، تعرف في كل شيء، الحل عندها ودارها قريبة، ابني يدلك عليها."

غابت الأم وعادت بـــ "الحاجة" ومعها حفيدتها الصغرى. شرحت الأم لـــ "فاندام" ما سبق أن شرحته لها الحاجة؛ قالت له: "الحاجة سبق لها أن عالجت كثيرا من هذه الحالات، ستدخل مغزلها في إستك و.. وتتخلص. "فنهرها "فاندام" حانقا: "تريدون التفرج علي، لن يكون، أموت ولا أفعل."

وفطنت "الحاجة" المحنكة إلى أن "الشاف" المدحور يكابر، فاستلت المغزل من منديل كان معها وخاطبته بقوة: "لا تكثر من الكلام، ادخل إلى البيت."

فرد بنبرة فيها بقية من مكابرة غطى عليها الانكسار: "تكونين معي أنت وحدك لا غير"

فردت "الحاجة" متجاهلة شرطه: "ومعي أمك، لأننا سنقلبك على رأسك لتمسك كل واحدة برجل، ادخل قبل أن تتفرقع صرتك." والتفتت الى الأم آمرة: "هيئي الزيت واتبعينا."
فدخل الغرفة، ولم يكن له إلا الدخول لأن حكم "الزعبول" نافذ صارم لا يقبل تأجيلا ولا استئنافا. وتبعته "الحاجة" وحفيدتها الصغرى ملتصقة كالقرادة بتلابيبها، والتحقت بهم الأم بزيتها وماعونها. وسد الباب لتبدأ الكيمياء..

لم تنتبه البنات، المبحلقات، للحفيدة الصغرى؛ فقد كان جسمها ضئيلا مكورا تستصغر العين صاحبته، لكن "القرادة" كان لها رأس فيه مخ عمره سبع سنوات، وعينان تلتقطان الفلتات، وفم "تزوي فيه الفلاليس".
.. في الصباح الباكر انسلت "القرادة" من الفراش، والتحقت بأطفال بينهم ابن الجارة يحكي لهم عن "فاندام رقم واحد"، أسكتته ونحته جانبا قائلة: "ما شاهدت شيئا، ولا تعرف كيف تحكي، أنا شاهدت كل شيء وأعرف كيف أحكي ما شاهدته."
وشرعت تحكي للأطفال المباح وغير المباح، مصورة لهم بتفصيل مفصل العملية التي خضع لها الحاكم "فاندام رقم واحد" بكيميائها وميكانيكها..

وسرعان ما تجمع أطفال الحي قبالة نافذة بيت "الشاف". اقتعدوا الرصيف، أشعلوا نارا سخنوا عليها تعريجات، ثم بدأوا الضرب والغناء:

"لاواه يَـــابَّ، لاواه يامِّي
كَرْمُوسْ انْصَارَى راه يَمْعَصْ بَعْضِينْ
جَابُو لِيهْ زيت المُونُورْ

كَبُّوهْ لِيهْ فِي الرَّادْيَتُورْ
الزُّغْيِي مـــقْـــلُوبْ، والمُغْزَلْ تَيْدُورْ"

وكانت "القرادة" تمسك التعريجة تحدد الإيقاع، وتذكر الأطفال بأبيات الأسطوانة التي حفظتها عن جدتها "الحاجة" صاحبة المغازل. أما "الشاف رقم واحد" فقد احتجب طيلة اليوم، وسافر به باباه طيلة اليوم الثاني واليوم الثالث، لكن ذلك لم يخلصه. فخرج اليهم بالدراجة اليابانية يتناوبون عليها، وخرج بالشكولاته حتى نفذت فأخذ يشتريها، ثم ملكهم الكرة السحرية، وأصبح يلاعبهم هادئا صامتا خاضعا، حريصا أشد ما يكون الحرص على تجنب أية مشاكسة خوفا من سماع "الأسطوانة". ومع ذلك كان أحيانا يسمع اللحن دون الكلمات فيتصبر مكابرا! إنه "الزعبول" وما أدراك ما الزعبول: جامع السؤدد والسيادة والنبل والنبالة، يقبض الكروش المتسيبة السائبة، ويلوي الرؤوس المتعجرفة الناطحة، يغذي المقتصدين ويسالمهم، وينزل العقاب بالمسرفين فـــ "يمعصهم". وفي هذا تكمن أخلاقية هذه الفاكهة المتواضعة المتوحشة. فإذا اقتنعت بهذه "الأخلاقية" فذاك عين الصواب، وإذا ما اعجبتك كرشك وركبت رأسك كل "الزعبول" بغير حساب واستعد للحساب والعقاب.

خاتمة:

فيا الله، يامن كور الأرض وأنبت فيها "الزعبول"، ندعوك أن تجعل كل الفواكه تنمو كما ينمو الزعبول، حتى تخف تكاليف الفلاح المقهور، فتعم الثمار الجبال والسهول، لتشبع المدينة والبادية، وتنال حظها من الفواكه الطير

والماشية. يا ألله، يا من كور الأرض وشوك "الزعبول"، وركب فيه خلق النفع والعقاب، ندعوك أن تجعل كل الفواكه أخلاقية، موزا كانت أو تفاحا، عنبا أو إجاصا، بطيخا أو دلاحا أو أناناصا، على سطح البر كانت أو في عمق البحر. اللهم اجعلها "أخلاقية" شأنها شأن الكرموس أو الهندية أو الزعبول "، تنزل العقاب بأكلتها المسرفين المتباهين حتى يأكلوا بحساب ويتركوا لغيرهم ما يأكلون .

سيدي يحيى الغرب
1995/09/10

"بوجعران " ابن بيئتـــه

يسميه المتفصحون "الجعل"، ويعرف عند العامة باسم "بوجعران" ،والكلمتان معا مذكورتان في المعاجم.. حمدا لله على اتساع المعاجم للخاصة والعامة. و"أبوجعران" هذا – بفتح الجيم وكسرها – حشرة سوداء قذرة أشد ما تكون القذارة! فهو يعمد إلى براز الحيوان والانسان في الخلاء ويشكل منه "كويرات" في حجم كرات "البيار"، يعني أقل بقليل من كرات "الكولف". ويظل "أبوجعران" متى وجد مادته الخامة يدحرجها بسيقانه الخلفية، وهي آخذة في التكور، حتى تستحيل كرة يدفع بها دفعا إلى الوراء، دون ما كلل أو ملل، ورأسه إلى الأسفل، والبق والناموس الصغير الأسود ملتصق معشش فوق ظهره. فاذا رأت عيناك منظر "أبي جعران" مدحرجا تقززت نفسك بلا شك، وبصقت شفتاك بلا ريب ، وأخذك العجب بلا شك وبلا ريب ،إن كان رأسك لايخلو من فلسفة، وتذكرت "سيزيف" حاملا صخرته في عذابه الأبدي. وقد يتملكك التفكير وقتا فتمتلئ نفسك ببعض المأساة بدل التقزز، إذا علمت ان "سيزيف" كتب عليه حمل الصخرة عقابا، وأن الجعل أو "أباجعران" جبل على التكوير ودحرجة ما كور عبثا!

فاذا لم يرقك هذا الوصف المتسخ ، ولم ترتح لهذه الفلسفة القذرة، فانى أدعوك إلى العلم، وأتركك مع عالم سويدي، جاء من أقصى الشمال إلى بلدنا الجنوب، يبحث في أمر "أبو جعران".. وأوقف سيارته "اللاندرفر" في ضاحية من ضواحي بلدنا، ثم نزل وبيده "كاميرا" ومعه فتى.

وكان أحد الرعاة، غير بعيد، يرعى شويهات لـــه، فانشغل بتفحص "الجيب" المتينة، وكراسيها الـــوتيرة خلــف الزجاج، ثم تأمل الرجلين وقتا محدثا نفسه: "الطويل الأزعر "گاوري"، والذي معه "مروكي"، "الگاوري" بلا شـــك جـــاء يبحث عن "الگاز" أو "ليصانص" أو.. ماذا يمكن أن يوجـــد في هذه الأرض؟ "وفيما هو يفكر في الذي يمكن أن يوجد في هذه الأرض خاطبه الفتى: "أيمكن أن نجد هنا "بوجعران"؟ نظر إليه الراعي وقتا كالمصدوم ليرد في ضحكة تخفي استخفافا بالسائل وبالمسؤول عنه:

- "ما أكثره! لن تجدوا غيره. وفيم تريدا لـــ "بوجعران" هذا؟ هل أصبح يباع؟"

تغافل الفتى عن استخفاف الراعي، واستكثر عليه الشرح مجيبا بلباقة:

- "ياسيدي، لايمكن أن أشرح لك كل شيء، المهم المفيد، الرجل الذي أنا معه عالم كبير مشهور جاء من "السويد"، وهو يقوم بتجارب حول "بوجعران."

رد الراعي: "هكذا!" ثم أشار بعصاه متابعا: "أرأيت تلك "الهوتة"، ستجد فيها ماتشاء من "بوجعران"، ولكن انتبه وأوص صاحبك العالم أن ينتبه حتى لا تتزبل أحذيتكم."

وعاد الفتى من المنحدر بمجموعة من الجعل انحنى والعالم عليها، والراعي في مكانه يراقبهما دون أن يتبين حقيقة ما يفعلانه؟ فلما رأى اهتمام وانشغال "الگاوري" وهو مستند على ركبتيه يصور بالكاميرا هزته "هيشة" الاستطلاع، فقصدهما محدثا نفسه: "أنا دللتهما على الـــ "بوجعران"، من حقي أن أعرف، لا عيب في هذا. "حتى إذا وقف عليهما

وجدهما قد صنعا سوارا من الرمل مستديرا، يحوّط حُفَيْرَة داخلها ثلاثة من الجعل، يحاول كل واحد تسلق الجدار الرملي المستدير لينجو، فيصل إلى علو من الجدار لينقلب على ظهره إلى قعر الحفيرة، فيعيد المحاولة.. والعالم السويدي جاد في التصوير، وكلما انقلب "بوجعران" صاح بلغة لا يفهم منها الراعي لفظا. فسأل الفتى:

"ماذا يقول صاحبك العالم؟ "نظر إليه الفتى ولم يجب، فقال له العالم: "لابأس أن تشرح له." قال الفتى: "إن هذا العالم يضع "بوجعران" وسط سور دائري لايمكنه أبدا تسلقه ليرى هل فيه ذكاء يجعله يستخدم جناحيه فيطير ويتجاوز السور."

لما سمع الراعي الشرح اهتز صدره من الضحك حتى دمعت عيناه، وحتى كف العالم عن التصوير ليبدي امتعاضه من سلوك الرجل، وناب عنه الفتى غاضبا:

"انك تحتقر مثل هذه التجارب لأنك جاهل، لا تدري نتائجها. هذا العالم من "السويد" وهو يقوم بتجاربه ويدونها. اخترق بلدان النصارى كلها يجرب، في كل تجربة كان الـــ "بوجعران" يهتدي إلى استعمال جناحيه فينجو، ولكن في هذه الأرض لا أدري ماذا حدث له؟!

فتماسك الراعي حتى لايغلبه الضحك وقال للفتى:

- أتحسن لغة هذا العالم؟

الفتى: إننا نتفاهم بالفرنسية.

الراعي: أتحسنها جيدا، يعني تستطيع أن تترجم ما أقول لك؟

الفتى: طبعا، لولا ذلك ما تمسك بمصاحبتي له.

الراعي: قل لصاحبك العالم ألا يتعب نفسه لأن "بوجعران" في أرضنا نسي أن له أجنحة! أوقل له باختصار: "بوجعران "ابن بيئته."

وفيما كان الفتى منشغلا بالترجمة كان الراعي يتجه صوب شويهاته، فناده العالم مصوتا: "إي، إي" طالبا منه الرجوع باشارة قوية من يده، فخاطب الراعي الفتى: "ليس لدي وقت، أخاف على شويهاتي أن تطير وأنا غافل عنها!!" فلما سمع العالم الترجمة نفخ شدقيه قائلا:

"بوجعران" عندكم لا يطير! الشياه عندكم تطير! لا أفهم؟ انه أمر معقد!!

فرد الفتى في خبث لايخلو من كياسة: "يبدوأن سيدي العالم لم يفهم جيدا معنى الترجمة."

حملق فيه العالم وقتا، ثم أخذ يكلم نفسه بلغة "الـڨـايْكينـڭ" بدل الفرنسية..

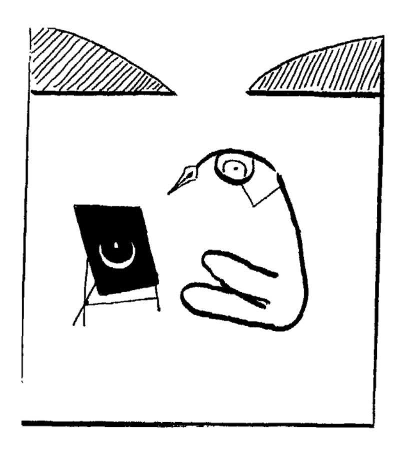
سيدي يحيى الغرب فبراير94
...فبراير 2007

- نشرت بجريدة " أنوال " بتاريخ 1994/2/19
- وقع فيها تعديل

الباب الثالث

مقامات "سليط بن القارح":

- مقامة النوارس.
- مقامة الحطب والبيض.



مقامات "سليط بن القارح"

1- مقامـــــة النــــوارس

"سليط بن القارح" :

أما الأب فاسمه المنطوق به في لغتنا العامية هو "الـــقارح"، عقدت القاف كما هو شائع في عاميتنا وعامية البلدان العربية. وأما الابن فيوم ولد سماه أبوه "سلطان" تيمنا به، لأن يوم ولادته حدث أن وضعت كل شاة من شياه "الـــقارح" توأمين. "سلطان" هذا بدأ يتكلم في سن مبكرة، بل لاحظ الناس في لسانه بعد الطول استحسنوه واستظرفوه فسموه "سُلَيْطِنْ" من باب التمليح. ثم ازداد لسانه طولا وحدة فسماه الذين كان يسلط عليهم لسانه "سْلاطة" بتسكين السين التي اذا فتحت تساوت الكلمتان في العامية والفصحى. وثبتت هذه التسمية بتسكين السين يوم وقّع عليها أبوه "القارح" وقد ضبطه يتتبع دجاجة تبيض: شده من أذنه متسائلا: "ماذا تفعل هنا يا قليل الحياء ؟" فرد الطفل دون أن يطرف له رمش: "لن أتزحزح من مكاني حتى أرى بعيني من أين تخرج الدجاجة بيضها، ولماذا تخرجها على هذا الشكل ولا تخرجها على شكل آخر ؟".

فارتخت الأصابع الغليظة عن الأذن الغضة، وضرب "القارح" كفا على كف موقعا: "سلاطة وأية سلاطة." ومنذ شاع أمر هذه الحادثة تلاشى "سلطان" ومعه "سليطن" وتربعت على الألسن الـــ "سْلاطة ". وفي أول عام له بالمدرسة دوخ صاحبنا معلم اللغة العربية بأسمائه، وبجرأته، وبحدة ذكائه، وحدة لسانه، فسماه "سليط". وما كنا

لندرك معنى الكلمة في ذلك الوقت، لكن الذي جعل الاسم حيا في ألسن التلاميذ هو المعلم الفرنساوي خلال العام الثاني من الدراسة؛ وجد سهولة في نطق الكلمة، وكان أحيانا ينطقها متصلة وأحيانا يحلو له أن يعبث بالاسم فينطقه متقطعا ضاربا على المكتب أو الطاولة أو على رأس "سَليط" ضرباتٍ مصاحبةً لتقطيعه، خفيفةً أو قويةٍ تبعا لما كان يصدر عن "سليط"، وما أكثر ما كان يصدر عنه! وبذلك لازمته هذه التسمية وغطت على اسمه المقيد في كناش الحالة المدنية. وقد فطن "سليط" –فيما بعد– لدلالة تسميته، وقال معقبا بأسلوبه الخاص: "صاحب الفرنسية وصاحب العربية تعاونا على صاحبكما ليصوغا له هذه التسمية، ولا أدري أيهما كان أشد سلاطة من صاحبه!"

فطن "سليط" لدلالة التسمية قبلنا، وما كنا لنفطن إلى ذلك قبله، فقد كان نجيبا حاذقا في الدراسة، لا يضاهيه ولا يبلغ شأوه تلميذ، كما كان حاذقا في تسلق الأشجار طلبا للبيض في أعشاش العصافير. غرامه بالبيض كان جنونيا لايحد منه علو الشجر ولا التواء الأغصان وتشابكها.

بعدما تجاوزنا البلوغ بقليل لاحظنا أن صاحبنا "سليط" تحول غرامه ببيضِ الدجاج والحمام والعصافير إلى غرام بالبويضة في شكلها الدقيق وأسرارها الغامضة.. لكن الحنين عاوده يوما إلى البيض الكبير؛ نبهناه إلى خطورة العمود الكهربائي عبثا، فقد كان عناده وجنون غرامه أقوى من تنبيهنا واشفاقنا، تتبعناه وهو صاعد، قلوبنا تصعد إلى حلوقنا بصعوده، حتى كانت الكارثة الفظيعة التي تركتنا مصعوقين ونحن على الأرض، أما هو فربنا وحده علم

بأمره وهو معلق يعبث به التيار، وربنا علم بأمره وقد سقط جثه تنتــفض..

نقل إلى المستشفى حيث ظل في غيبوبة طويلة، استفاق منها ليخضع لعلاج أطول.. وخلال محنته تلك تعرض لصعقة ثانية وقد علم بموت أبيه "الــقارح"، الذي أنفق ما عنده، وباع الزرع وباع الشياه لينقذ "سلطانه"، فتعقدت المضاعفات وطال معها العلاج.. ويوم خرج من المستشفى خرج إلى الناس في صورة فريدة: رأس مستديرة كرؤوس العباد، لكن جلدتها أضحت مجموعة من الرقع المخيطة كأنها جزر اليابان. وداخل الجمجمة المكسوة بالجزر بركان في غليان، حِمَمه مزيج غريب من التفكير والانتقاد والخواطر والطرائف والتندر، تجد متنفسا لها عبر لسان سليط يلفح ويلسع ويصفع. والناس يستلذون سلاطته بلفحها ولسعها وبحامضها وخلها فيستفزونه حتى أصبح شخصية شعبية مشهورا برُجَمِهِ وبأطباق "سلاطته" وبتعدد مهنه: فهو معلم في كتاب، وهو كاتب عمومي. وقد تجده جوالا يبيع سلعا مختلفة، حتى إذا ضاقت عليه السبل عاد لمهنته أو -كما يقول- لمحنته الأصلية: جلب البيض وتوزيعه على الدكاكين. لذلك كان يقول للمشتكين من سلاطته: "بيضي أكسره على رؤوسكم، وأنا الخاسر في النهاية، كم من بغل رأسه لا تستحق بيضة من بيضي !"

وماعدا هذا يبقى من صاحبنا مخلوق كبقية الخلق: له عينان ولسان وشفتان وبطن، وزوجتان وبنين وبنات لزوجات تخلى عن بعضهن، وبعضهن تخلين عنه حسب ذبذبات البركان داخل جمجمته. فرض نفسه على الناس بالسلاطة التي تنفر

الناس من الناس! هذه المفارقة، ومافيها من بيض مكسور على الرؤوس، لم أردها أن تضيع هدرا. عن لي أن أسجلها، أنقل بعضها نقلا مباشرا، وبعضها أرويه كما يتداوله الناس بتصرف.

مقامة النوارس :

جلسنا حول طاولة في المقهى نتذاكر في أمور "الشعر الحر "وسليط" يتابع حديثنا في نفور، فدعاه أحدنا للحديث فقال: "سمعت كثيرا كلمتي "الشعر الحر" تتردد، لماذا تثقلون على ألسنتكم بكلمتين؟ إذا كان الشعر الذي تتحدثون عنه لا بد له من كلمة تصفه حتى لا يختلط بالشعر فبإمكانكم أن تنحتوا من اللفظين لفظا واحدا."

فقال الداعي: كيف نقول ؟

قال سليط: تقولون "الشِّعْحُر" والفعل "شَعْحَرَ" و"تَشَعْحَرَ" والفاعل "متشعْحِر" فإذا أردتم المبالغة قلتم "شِعْحِير"

فاغتاظ أحدنا، وكان ينشر شعره الحر في الجرائد، وعقب على "سليط":

– تقول هذا لأنك لا تفهم منه شيئا.

ورد سليط: "طبعا لا أفهم شيئا من "الشعحر" لأن "الشعحر" لا موضوع له، فكيف تفهم لغة لا تحمل موضوعا!

فدفعت لسليط بجريدة قائلا: "في هذه الجريدة نص لصاحبنا موضوعه "النورس" اقرأه لعلك تغير رأيك."

.. قرأ "سليط" النص.. رمى بالجريدة بيننا مخاطبا صاحب النص:

– لا تنتظر مني أن أقول لك :فهمت، فشيئا لم أفهم، ولكني سائلك عن النورس: "ماذا تعرف عنه ؟"

- من يجهل هذا، الكل يعرف أنه طائر بحري يعيش على السمك.
- لو أتيتك بطائر يشبهه في الحجم واللون هل تستطيع أن تتعرف على نورسك؟ ،اصدقني.
فرد صاحبنا: "لا استطيع الجزم."
- فما جوابك إن سألتك عن منقاره و ذيله أيهما أطول؟
- فقال صاحبنا بعد تفكير و تردد: "أظنهما متساويين"
- فضرط سليط بشفتيه قائلا:" بزقت عليك النوارس"
وأخذناالضحك، وصاحبنا أخذه الغيظ، ونحن نغمزه وننخسه بأصابع الأرجل لنظفرمن "سليط" بالمزيد،فتصبرليقول:
ـ "جمال النورس وما يوحي به من معان شفافة سامية أكبر من أن يسمو إليها رأسك المرقع."
فأدار "سليط" رأسه مرات ليقول: سبحان الله ! باز !! وكيف تتسع رأسك الصندوقية للجمال والشفافية والمعاني السامية يوحي بها طائر لا تستطيع عينك العشواء أن تميز بينه وبين طائر يشبهه، ولا تستيطع أن تميز بين ذيله ومنقاره في الطول !"
ورد صاحبنا: ان ما تقوله: "خلبطة" مردها إلى عقدة نفسية فيك، فأنت بكل تأكيد لم يسبق لك أن رأيت البحر، فكيف لك أن ترى نورسا لتدرك ما أقول ؟
فنظر "سليط" إلى صاحبنا نظرة يائس من حديث لا طائل منه، ثم هم بالوقوف لينصرف، فأمسكته من كتفه أستبقيه، وأنا أعرف أنه لم يقل كل شيء، وسألته:
ـ "أصحيح أنك لم تر البحر ولم تر نورسا قط ؟"

فقال بعدما استوى في مقعده:

ــ "رأيت البحر، اشتغلت في المرسى زمنا رأيت خلاله النورس على بعد خطوات مني، رأيته ينزل من السماء إلى الأرض، وكان منظره بشعا وهو ذليل يلتقط السردين العفن. والناس في المرسى يسمونه "عَوَّةْ"، ولو كان هؤلاء "المرساويون "يقرأون" "الشعحر" لسموا كل "متشعْحِرِ" عوة". وما أجدر صاحبكم وأمثاله بهذا الإسم!"

أطرق صاحبنا "عوة" برأسه يخفي ضحكته، فيما كنا نميل على بعضنا من الضحك.

ثم رفع صاحبنا رأسه هاجما على "سليط":

ــ "تستطيع أن تهدم حائطابرأسك المرقع ولسانك السليط، ولكن لا تستطيع أن تقول جملة شعرية في النورس، رغم عهدك بالبحر وبالمرسى كما زعمت."

ــ"لكن أستطيع أن أقول جملا كثيرة في نوارس ليست بحرية بل برية، تلقاني وألقاها في الدروب والأزقة، تكملني وأكلمها."

فتدخل واحد منا كنا نسيمه "عكرمة" متكلفا نبرة المتفصحين: "ويحك يا سليط، أهناك نوارس برية تلقاك في الأزقة ونحن لا نلقى فيها إلا البقر والغنم؟ لا علم لنا بهذا، أقسمت لتحدثن عنها."

فرد سليط بنفس النبرة: أجل يا "عكرمة" بن شرذمة"، في أزقتنا نوارس برية، وإنها –وحق العزة– نوارس بلا أجنحة، يعني لا تطير، بل تمشي على رجلين حافيتين متسختين، أو تنتعل أحذية الـــ "ميكا" المصنوعة من الزفت. وبعض هذه النوارس تركب جحوشا عيونها وطفاء

شديدة السواد، جوانبها مغبرة، على جانبي كل جحش صندوقان شدا إلى بعضهما بالحبل. هذه "النوارس" يا "عوة" تكون سربا لا يطير وراء قارب يلتقط سردين البحارة،إنما حافيها ومنتعلها وراكبها يسابقون شاحنة الأزبال إلى وعاءات القمامة في زوايا الأزقة وحواشيها، وإلى الأبواب يطرقونها لتسلم البراميل، يهبشون فيها بالمناقير فاحصين منقبين عن قشور الفواكه وبقايا الخضراوات، ليفرغوها في الصناديق."

فقال "عكرمة" بنفس النبرة: "ويحك يا ابن القارح، ما تراهم يفعلون بها ؟"

ـ يعودون بها إلى المصفحة -يعني الدوار- حيث أعشاشهم، ليقدموها لدوابهم، إن كانت لهم دابة، أو يبيعوها لمن لهم بقرة أو نعاج وشد عليهم شراء علف يمسكه عنهم أصحاب "البونات" بعد ما شدت عنهم السماء "بوناتها".

وغضن صاحبنا ملامحه منتقدا: "لا، لا، هذه النوارس البرية لا تصلح للشعر، شيء ظرفي ومباشر، يتكرر بنفس الشكل، ناهيك عن محليته، أين الجمال، أين الموسيقى أين الخيال وأين الظل؟ "

ـ هذه الأشياء التي ذكرت ليست في "الشعر" على كل حال. أما عن ظرفية هذه النوارس ومحليتها فحالها ينطبق عليه المثل : "اهبش تجبذ احنش"

ـ أنت "الهباش النباش" هبشت فماذا وجدت ؟

فأجاب "سليط" على البديهة: "تريد الظلال، ما رأيك يا "عوة" في نورس من هذه النوارس كان يتهيأ ليفرغ في صندوقيه قمامة دسمة: فاصوليا أحرقتها المثلجة، جذور النعناع، قشور

الليمون، "زناطيط" البصلة "خروب" الفول، فاذا بحماره بعر أمام باب الدار، وإذا بربة الدار تحرمه من القمامة.؟ "

فأمسكنا أفواهنا نكتم القهقهة حتى لا نثير العيون.. حتى إذا خف الضحك هجم "سليط" على صاحبنا برأسه يسأله: ما رأيك يا "عوة" في هذه الظلال ؟

فرد صاحبنا: "ظلال الشعر في نورسك هذا كفعل حماره."

.. أمسكنا أنوفنا مصوتين: "إخ خ خ خ.. (وسليط معرض عنا بوجهه يحك رأسه المرقعة وقتا)، ليقبل علينا هاجما على الجميع: "سأقول لكم غيرها فـــ "انصطوا" أنوفكم: "رأيت يوما نورسا على جحشه بين صندوقين يسير في زقاق، فأبصر بقرة تدخل رأسها في برميل صفيحي وتخرج منه كيسا من "الميكا" كبيرا ممتلئا، ترسله بأسنانها يمينا وشمالا لتفضه، فنخس النورس الجحش ليدركها، وتباطأ الجحش فوثب النورس من ظهره إلى الأرض يطير برجلين في نعلين زفتيتين حتى أدرك البقرة يبغى انتزاع الكيس منها، لكن البقرة فطنت فهاجمته بالقرون، فكر طائرا برجلين حافيتين إلى حيث وقف جحشه، وتناول المنخاس ليعود محلقا نازلا على البقرة ضربا على الرأس حتى تخلت عن الكيس. فالتقطه والتقط ما ضاع منه، ورجع ليفرغ الغنيمة في صندوقيه، ثم قفز مستويا فوق البردعة وتابع الجحش سيره. وبعد مسافة التفت النورس وراءه فوجد البقرة في مكان الموقعة واقفة رافعة رأسها لا تفارقه بنظراتها، فقلت له وكان قريبا مني:

ــ "ظلمت البقرة المسكينة."

فقال: اشتر لها ما تأكل وأنا أبيعك.

فقلت: ليست بقرتي ولست مولاها.

فقال النورس: اذهب عندها وقل لها في أذنها أن تذهب عند مولاها وتقول له في أذنه أن يأتي عندي ليشتري لها ما تأكله.

فسجع عكرمة: "بوركت يا "سليط" بوركت، مسحت البعر وأنطقت البقر."

ورجَّع سليط: "أطال الله قرونك حتى تفقأ لـــ "عوة" البصر."

وقام لينصرف عنا عنا تاركا خل سلاطته يسري فينا. فكنا نضحك ونقتصد في الضحك إشفاقا على صاحبنا "عوة" شاعرنا الفحل وقد ذاق أوفر نصيب من الخل.

سيدي يحيي الغرب.
27 مارس 1995

مقامات "سليط بن القارح"

2- مقامة البيض والحطب

دعانا "المنور" للعشاء في داره. سألناه ما المناسبة؟ قال: "صدقة"، قال له صهره "الهجهوج": قل "وليمة" وقلت له أنا قل "زردة". فرد كعادته: "بل هي صدقة"

وهكذا كلما دعانا لنفس المناسبة اختلفنا في التسمية؛ نحن نسميها "وليمة" أو "زردة" خلافا للعرف، وهو يصر على تسميتها "صدقة" ترسيخا للعرف: يدعو لها أفرادا من حفظة القرآن، ويعزم بعض معارفه؛ يسمعون، يحتسون الشاي يذيبون به الحلويات، يتحلقون بعد ذلك حول موائد الدجاج ولحم الغنم أو البقر، ثم ترفع الأكف بالدعاء، واحد من الحفظة يدعو لصاحب "الصدقة" والمولمون يوقعون على دعواته ب "آمين".

"المنور" كان يجد في هذا توازنا وتماسكا نفسيا -كما أفهمنا- لذلك كثرت الصدقات التي يقميها وتقاربت. قبلت الدعوة دون تعليق، أما "الهجهوج" فقال بنبرة فيها خبث مغلف بالجد: "سأحضر معي "سليط".

سكت عنه "المنور".. لم يفتنا ما سكت عنه: "يتـفق معنا في التسمية، لكنه يتجاوزنا بلسانه الطويل ليسمع صاحبنا "المنور" متى تحدثنا في أمر الصدقات: "أنت اذا أصابك خير أقمت الصدقة، وان رأيت حلما مزعجا عجلت بالصدقة، وان تعثرت ولم تسقط على وجهك أوجبت على نفسك الصدقة،

وإن وإذا لم تجد سببا دعوت إلى الصدقة دفعا لعين الإنس فإن لم يكن فلدفع عين الجن!"

لم يكن هذا فحسب ما يضايق "المنور"، كان يتضايق أكثر من انتقادات "سليط" لحفظة القرآن وتصويره الكاريكاتوري لتصرفات بعضهم. وليس هذا كل ما سكت عنه "المنور"، فهو في نفس الوقت لايستطيع الجهر بعدم الترحيب ب "سليط"، وإن فعل وصل ذلك إلى "سليط" إن لم يكن من "الهجهوج" فمني. ويعلم "المنور" ونعلم ما يمكن أن يجره هذا من متاعب عليه وعلى مقيمي الصدقات.

كل هذا المسكوت عنه أدركناه جميعنا في ثوان. تأكدت من ذلك و "الهجهوج" ينظر إلي بعين قرأت فيها التلذذ بالحالة التي أوقع فيها صهره. فأشفقت من صاحبنا "المنور" وهممت أن أثني "الهجهوج" عما يدبره غير أني قلت في نفسي: "الهجهوج" يعبث بصهره بعض الوقت ليس إلا، "الهجهوج" لن يحضر معه "سليط" و "سليط" لن يقبل مصاحبته إلى الصدقة ولو جره."

حدث هذا صباحا في الهري الذي يشرف عليه "المنور". وفي المساء، بعد صلاة العشاء، تبين لي أني كنت مخطئا في تقديري؛ فقد حضر "الهجهوج" متأخرا و"سليط" كان معه.

ما إن دخلا حتى قمت من مكاني والتصقت بسليط أختلس النظر إلى رأسه، وألقى نظرة انتقاد واستغراب على "الهجهوج"، وهو يجيب على نظراتي بابتسامة لا تختلف عن ابتسامته هذا الصباح. رآنا "المنور" فأقبل الينا. سلم على "سليط" ورحب به، فبادره "سليط": "ما مناسبة هذه "الزردة"،

زوجة جديدة أم طلقت الزوجة القديمة ؟" فهمس "المنور" بنبرة المسالم: "لا زواج ولا طلاق، صدقة صدقة لله."
قال "سليط": "خبرني يا صاحب الصدقات، أولائك المقرئون؟ أربعة أعرفهم، لا يفترقون، والخامس غريب عنهم، من يكون؟ "
فقال "المنور" : صحيح، ذلك الخامس كان منذ شهور يحرس "زريبة" نحل لنا بإحدى الغابات حتى أقاله أبي.. ولم أره منذ ذلك الوقت حتى استوقفني هذا الأسبوع وقال لي: "دائما يا "سي لمنور" تقيم الصدقات ولا تدعوني، وأنا أحفظ القرآن وأقرأه كالماء الجاري. "وهاهو –كما سمعنا وكما ستسمع، ماشاء الله– يقرأ القرآن كالماء الجاري".

واستأنف المقرئون قراءتهم بعد استراحة. انصرف عنا "المنور" إلى مكانه قرب المقرئين، ولزمنا الصمت نستمع.. حتى إذا سكتوا، وانشغل الحضور بالشاي وبالحلويات، قال "الهجهوج" لصاحبنا "سليط".: "أنا أعرف أن ذلك الخامس غريب عن أولائك الأربعة لأني أحضر كل صدقات صهري، وأنت كيف عرفت ما عرفت؟ "
فأدار "سليط" رأسه الغريبة وأجاب: "أخبار الدوار في رأس العطار." فاحتضنت رأسي بكفي وعقبت: "اللهم إنا نسألك حسن الختام."

(في هذا الوقت قام المقرئ الخامس محتضنا جانبي وجهه براحتيه، يقرأ بكيفية انفرادية وبصوت قوي) فعقب "سليط" على دعائي: "دعوتك لم تقبل لأنك لم تحضر إلا من أجل المرق واللحم، إنها سوء التغذية، إنها سوء النية!" فألجمني.

وبدأت الهبات تصل المقرئ الخامس، فكان كلما نفحه أحد بمبلغ قرأ آيات أو سورة كاملة من القرآن ثم دعا للمتصدق دعاءا يتناسب والصدقة.

.. أثناء هذا الطقس من طقوس "الصدقة" قال "سليط" معلقا: "سبحان الله، يكفي أن يبدأ الأول بنفح الفقيه ليتبعه الآخرون، أية سنة سنها هؤلاء القوم؟ أنا لن يأخذ مني صاحبكم الذي يقرأالقرآن كالماء الجاري فلسا أبيض."

وخزه "الهجهوج" بمرفقه قائلا: "أعطيك ما تعطيه للفقيه." فسكت عنه. فقلت له: "أعطيك أنا" فرد ببعض الحدة: "ولماذا تعطونني لأعطي للفقيه؟ أعطوه أنتم مباشرة، ما الفرق؟"

سكتنا عنه فألح في السؤال: "سألتكما ما الفرق؟" فما أجابه أحدنا فقال: "الفرق أعرفه، ليرى الحاضرون أنني أعطيت كما أعطوا، فأعد من المصدقين، الكرماء، الأسخياء، ولا أعد من البخلاء الشحيحين الذين.." وأدرك أننا متواطئان على الصمت، فدارى صمتنا بصمت تتخلله الغمغمة حتى قمنا إلى مائدة العشاء.

شبعنا دجاجا، وأتخمنا بلحم البقر، ثم ختمنا على فم المعدة بشمع الفواكه حلوها وحامضها، وطيف على المولمين بالماء والصابون ليطردوا الدسم عن أيديهم، وليمضمضوا، مفرغين في الطُّسُوت ماعلق بأسنانهم من بقايا اللحوم. وجاء وقت الختم ب "الفاتحة" لصاحب الصدقة، فبسطت كفوف، ورفعت كفوف يوقع أصحابها بـــ "آمين" على دعوات الفقيه، الذي يقرأ القرآن كالماء الجاري، وهو يدعو بإطناب لصاحب "الصدقة" ثم لأبيه ولأمه ولأولاده، وللحاضرين

المتصدقين، وللطابخات، وللمسلمين كافة، وللسلطان. ثم ختم الجميع ــ المقرئون والمدعوون ــ بقراءة سورة "الفاتحة"، وبالصلاة على أشرف المرسلين وخاتم النبيئين. بعدها قام كل جالس يتلمس حذاءه ونعله بين أحذية ونعال متراكمة.

استبقانا "الهجهوج" صهر "المنور" بعض الوقت، فكنا آخر المودعين. سلم "المنور" على "سليط" بحرارة زائدة وقال له: "مرحبابك في الصدقة المقبلة."

رد "سليط": "شريطة ألا يكون فيها ذلك الفقيه الذي يقرأ القرآن كالماء الجاري."

تراجعت حرارة أخينا "المنور" من رد صاحبنا "سليط"، دارى شعوره متسائلا:

"وماذا به، ماذا فيه؟"

رد "سليط" وهو يؤرجح رأسه الغريبة يمينا وشمالا: "ماذا به، ماذا، ماذا، هذا ماذا؟ ماذا أقول لك؟ أخبار الدوار في رأس العطار."

فدفعته أمامي قائلا: "اسكت يا عطار والتحق بالباب قبل أن تقلب توابلك اللحم في أمعائنا."

تأخر عنا "الهجهوج" يحادث صهره. أما أنا فوصلت بسليط إلى الباب الخارجي أتعمد دفعه من رأسه المرقعة حتى اغتاظ من ذلك فتركني بالباب وانصرف. وحين التحق بي "الهجهوج" بادرته: "سليط انصرف مغتاظا. "فقال بنبرة فيها عتاب متكلف":

"ارتحت الآن؟ هاقد فوت علينا معرفة أخبار الدوار من رأس العطار."

..ثرثرنا كثيرا طوال الطريق، لكن الجملة التي فرضت نفسها على لساننا هي جملة صاحبنا "سليط"، فاقترحت على "الهجهوج" أن نلتحق به – كائنا ما كان– ليفك لغزه قبل الصباح. فرد على اقتراحي: "لا داعي لذلك، انه مشغول بتجارته هذه الأيام، غدا سيأتي بالبيض لـــ "المنور" كما اعتاد أن يفعل كلما طلب منه ذلك، غدا سنفرقع الرمانة."

قلت له: "هذا إذا لم يطرأ طارئ في رأسه ؟"

فقال بوثوق: "سيأتي، هل تراهن على ذلك ؟"

قلت: "لا قدرة لي على المراهنة معك."

فقال: "تصبح على خير، إلى الغد بالهري، أحسن مكان لفرقعة الرمان."

الهري الذي تحدث عنه "الهجهوج" هو لأب "المنور". عهد إليه بالإشراف عليه بمساعدة صهره. وهو محل كبير لبيع علف الماشية والدجاج وأدوية المزروعات. وبالإضافة إلى عمله التجاري يجتمع "المنور" في الهري الواسع بشلته يشربون الشاي ويلغون.

وصلت الهري ساعة بعد العصر. قبل أن أدخل وألقي نظرة على الداخل، قبل أن أسلم سبقتني هذه الجملة: "أخبار الدوار في رأس العطار." وحين دخلت الهري رأيت السيد "المنور" وراء منضدته في حديث مع سيدنا الفقيه الذي يقرأ القرآن كالماء الجاري، فندمت على تسرعي، وتكلفت الوقار وأنا أسلم على الرجلين. وأنقذني صاحبي "الهجهوج" –وهو يقلب جريدة– بأن دعاني إلى كرسي بجانبه. قلبت الجريدة وقتا متظاهرا بالقراءة، منتظرامن "الهجهوج" أن يمحو بسمة

خبيثة يحاصرني بها، فما فعل. وحين ملت إليه وهممت أن أسأله عما أرى همس إلي وعينه على الجريدة: "الفقيه يريد المتاجرة في العسل، ليس معه رأس المال الكافي، يريد السلعة من "المنور" على أن.. لـــم يتمم "الهجهوج تفسيره لأن "سليط" دخل علينا فملأت رأسه الهري، وتحولت بسمة "الهجهوج" الخبيثة ضحكة مدوية. "سليط" تحاشى النظر إلينا.. وضع على المنضدة سلة كان يحملها، مد يده مصافحا "المنور" فمحدثه، ليقول: "ها هو بيض البط يا سي "المنور"، بالشفاء والعافية." وتفحص الفقيه وقتا ليتابع: "نسأل الله أن يستجيب لدعوات الفقيه، فما أكثر ما دعا لك البارحة! ونسأل الله أن تكون نسبة هذا البيض الذي في السلة كافية لتسوي نسبة السكر في دمك."

استوى الفقيه من انحناءته ليعقب: "بيض البط، وما أدراك ما بيض البط. شافي "ناس" وداوى "قومان". وخصوصا البيض الذي يبيضه البط في الليالي المقمرة، يكون لون قشرته يميل إلى زرقة شفافة، أما الذي قشرته بيضاء ناصعة فمفعوله قليل، وأعرف.."

فاستوقفه "سليط" بإشارة من يده ليقول: "سبحان الله. الفقيه الذي يقرأ القرآن كالماء الجاري يعرف في البيض وفي السكري."

كثمت ضحكتي قدر المستطاع، أما "الهجهوج" فجلجلت ضحكته في الهري الواسع، وأما الفقيه فسكت وقد اختلط في ملامحه الاندهاش والاستياء. وحدج "سليط" وقتا ثم التفت إلى "المنور" فتلقاه بالابتسام وهو يقول لـــ "سليط": "منذ

دخلت يا "سليط" وأنت واقف، وراءك الكنبة، اجلس، اجلس لتستريح."

قفزت من مكاني على المناسبة، قمت من على الكرسي الذي كنت أجلس عليه وحملته مسرعا إلى حيث وقف سيدنا "سليط"، وضعته مكان الكنبة قائلا: "أنا أجلس على الكنبة و"سليط" على الكرسي يجلس معززا، والله لن يجلس على الكرسي غيره."

وحاصرته بذراعي أريد معانقته، وهو يتمادى في إعراضه عني، فأمسكت برأسه وقبلتها. حينذاك نطق، وهو يقبل علي بنظراته حينا ويميل عني حينا، : "البارحة كنتَ قليل الأدب، والساعة أنت كثير الأدب، يعني نسبة الأدب فيك "طالعة نازلة" مثل السكر. صاحبنا "المنور" أشاروا عليه ببيض البط، وأنت هل نشير عليك ببيض النعامة.؟"

واستدار نحو الفقيه يسأله : "ما رأيك في بيض النعامة.؟"

لم ينبس الفقيه بكلمة.. وبدا لي وللهجهوج أنه مستاء من الأسلوب الذي يتكلم به "سليط"، بقدر ما هو مشدود إلى الغرض الذي قصد من أجله "المنور"؛ فهو بين الانصراف والبقاء في كبد. فسارع "الهجهوج" إليه حاملا كرسيه قائلا بتأدب زائد : "تفضل، اجلس يا سيدنا." ونادى بأعلى صوته على مستأجر يقبع بباب لدكان ملحق بالهري: "واسيمو، عجل بالشاي." تردد الفقيه وقتا ثم جلس. وأمسكني "الهجهوج" من مرفقي ــ بعدما حمل الكنبةــ يسير بي إلى الزاوية التي كنا فيها هامسا إلي: "مارأيك؟"

فأجبته : " هيأت خشبة المسرح يا عدو الله."

جلسنا على الكنبة، وظل "سليط" واقفا. رجاه "المنور" بتودد أن يجلس فرد بحدة: "اسمع لن أجلس حتى نتفق على ثمن البيض. دائما تيبس فمي من كثرة الأخذ والرد، تحاسبني على الريال ونصف الريال، اسمع ياسيدنا"المنور"، بيض البط هذا أصبحت له مناقير وعما قريب ستصبح له أجنحة فلا يجده طالبه في السوق. كنا في البادية نعافه فعشنا حتى طلع شأنه، عشنا حتى" شفنا "كل من هب ودب وهبش يفهم في الطب وفي البيض الذي يداوي السكري.." فقاطعه "المنور":

"يا هذا الرجل، البيض في سلتك وفي فمك الفلاليس، قلنا لك: اجلس، اجلس، غفر الله لنا ولك."

قال الفقيه: "آمين."

وقال "سليط": "والله ما أنا بجالس حتى تحسب وتضع النقود على المنضدة. في السلة ثلاثون بيضة، اشتريت الواحدة بدرهم، وعليك أن تربحني نصف الدرهم، هذا ليس كثيرا عليك. احسب وضع نقودي على المنضدة."

نظر "المنور" إلى السلة وقال بنبرة المتجاهل ممطط شفتيه: "كل هذه الثرثرة غير مفيدة، لن أعطيك أكثر من درهم للبيضة، هذا فيه الخير والبركة اجلس."

ضرط "سليط" بشفيتيه كعادته، ورد كأنما يخاطب نفسه: "الزردة تقيمها بلا حساب، وبضع ريالاتٍ يحاسب عليها "سليط"."

ثم خطا نحو السلة وأمسك بها قائلا: "هل تفعل ما قلت لك أم أنصرف ببيضي ؟"

فأمسك "المنور" بالسلة هو الآخر قائلا: "آخذ البيض بالثمن الذي قلت لك."

فجذب "سليط" السلة بشيء من العنف تراجع معه "المنور" إلى الوراء صارخا: "مهلا، مهلا، كدت تكسر البيض، كسر الله رأسك المرقعة، هاهي النقود."
ولم ترتخ أصابع صاحبنا "سليط" عن السلة، ولم يتزحزح من مكانه حتى تأكد من المبلغ وقد عده "المنور" فوق المنضدة قرب السلة.

لم يكن طوال حديثه يأبه لضحكنا وتهامسنا – أنا و"الهجهوج" – لكنه عندما جلس نظرإلينا فأسرع إليه "الهجهوج" بسيجارة أشعلها له. وحضر في اللحظة "سيمو" يحمل الصينية معلنا: هاهو الأتاي برغوته ياعمي "سليط" . وأمسك الصينية بكف ومسح بكفه الثانية على رأس "سليط" ثم قبل الكف التي مسحت الرأس قائلا: "التسليم."
نفث "سليط" الدخان غير آبه بحر كاته وقال له آمرا: "ضع الصينية أمام سيدك." ثم تابع: "أنت عندما ستصاب بالسكري إن شاء الله، سيصبح بيض البط بخمسة دراهم للبيضة ذات اللون الأزرق الشفاف."

وضع "سيمو" الصينية أمام السيد "المنور" الذي أومأ إليه أن يضعها أمام الفقيه، وخرج يردد: "الأتاي برغوته، التسليم، التسليم."

لاح بعض الانفراج في أسارير الفقيه، ولم يفتنا نحن – المتفرجين – أن تلميح "سليط" لم يفته؟. كما بدالنا من ملامحه أنه فطن إلى سحر صاحبنا "سليط"، وإلى أن هذا

السحر كالبخور لا تضوع رائحته إلا بالجمر. فقلب و"شقلب" الأتاي، وكان يرفع البراد عاليا ويصب بكيفية يترغى معها السائل العجيب. ولما نال كل منا كأسه رشف الفقيه رشفة لها صوت وقال مختلسا النظر إلى سليط: "الشاي برغوته، التسليم، التسليم." ومال ببصره إلى "المنور" ليتابع بنبرة الناصح المستفهم:

– "ياسي المنور، أديت ثمن البيض قبل أن تعرف فاسده من صالحه ؟"

فاستجاب "المنور" لنية الفقيه، وقال بعدما نشق نشقة من سعوطه:

– "كلامك صحيح، يا "سي بوحاجة"، فاتني هذا الأمر، وماذا أفعل؟ عودنا "سليط" على هذا." تململ سليط في كرسيه ونطق: "منذ البارحة وأنا أتذكر اسمك، الآن تذكرته. قل لي يا "سي بوحاجة" كيف تميز أنت فاسد البيض من صالحه.؟"

رد "بوحاجة" :"أحضن البيضة براحة يدي وأوجه قاعدتها إلى الشمس فيظهر لي فسادها أو صلاحها. ولكن هذا لا يستطيعه إلا من لهم رأس سليمة وعين بصيرة." وخزني"الهجهوج" وهمس: "وقعت الواقعة."

مرر "سليط" كفه على رأسه كأنما يتلمس أثر الضربة الموجهة إليه، أ فرج ساقيه ومددهما ثم انثنى بجذعه إلى الوارء ليقول، وهو ينظر إلى سقف الهري،:

"وإذا اشتريت يا "سي بوحاجة" البيض في يوم غائم أسود لا شمس فيه، أوفي صباح ضبابي، كيف تفعل ؟"

لم تسعف الفقيه بديهته، تظاهر بتسوية الكؤوس التي أعيدت إلى الصينية وهو يفكر، لكن "سليط" لم يمهله، تابع وبصره لا يبرح السقف: "أنا أدلك على الطريقة: تذهب إلى السوق ومعك دلو فيه ماء تغمس فيه البيض، ماغاص في الماء صالح وما صعد فاسد، بعد ذلك تفرغ الماء الذي في الدلو على رأسك، الماء الذي يغمس فيه البيض -خصوصا بيض البط- ينبت شعر الرؤوس الصلعاء." ضحك الفقيه وهو يمسح على بعض من صلعته، فشجعنا ذلك على الضحك الذي انتقل بنا إلى الخوض في طرق الكشف عن البيض المذر، وفي أسباب الصلع وطرق استنبات الشعر..

لم يشاركنا الفقية لغونا. انشغل بصب الأتاي، لكنه أسكتنا وهو يضع البراد على الصينية بشيء من القوة ويقول بصوت أقوى: "الشاي، الشاي برغوته وبرغاويه، التسليم."

أشار إلي " سليط" فقمت وناولته سيجارة. أشعلها، تأمل الفقية مرددا كأنما يخاطب نفسه: "بوحاجة، بوحاجة.؟ تذكرت اسمك يا بوحاجة." ثم وجه إليه هذا الكلام: "أنا لا أعرف لماذا جئت، لكن منذ وضعت السلة على المنضدة، ومنذ وضع "المنور" النقود بجانبها وعيناك لا تفارقان لا هذه ولا تلك. إنك لا تكره نصيبا من ذلك البيض، ولا تكره أن تضيف إليه نصيبا من تلك النقود، ولا تكره أن تضيف إلى ذلك وتلك نصيبا من نخالة الزرع ومن نخالة الشمندر، وشيئا من "السيكاليم" المتراكمة في هذا الهري، و.."

فأوقفه الفقيه: "حسبك، حسبك، بيض سي "المنور" يأكله بالشفاء والعافية، أعطانا البارحة وأكثر، كثر الله خيره. أما

فلوسك أنت فالبارحة أعطيتنا منها الكثير، وما أشبه البارحة باليوم."

نظر الينا "سليط" وهو يؤرجح رأسه العجيبة ويقول: "جاءكم كلامي، لهذا لا يفوت صاحبنا "بوحاجة" وأمثاله أن يقرأوا في مثل هذه المناسبات التي يقيمها أخونا "المنور" وأمثاله، لا يفوتهم أن يقرأوا من القرآن عن الذين" يكنزون الذهب والفضة و... و... وتكوى بها جباههم وظهورهم"، يصرون على قراءة هذه الآيات حتى يستلوا الفلس من كل حاضر حاضر.. ولكني كنت حاضرا البارحة ولم يستل مني "سي بوحاجة" فلسا واحدا رغم أنه قرأ هذه الآيات كالماء الجاري وبصوت قوي."

استوى الفقيه في كرسيه ليقول: "أخطأت مرتين، أولا ما تسميه "زردات" هي صدقات يتلى فيها كتاب الله، وترفع فيها الكفوف بالدعوات، ودعاء الصدقات مستجاب إن لم يكن عاجلا فآجلا، ونحن لا نرغم أحدا على أن يعطينا، إنما الناس سخاؤهم على قدر إيمانهم، ولا تسخو إلا كفوف الذين تكون قلوبهم مؤمنة ورؤوسهم سليمة صافية، أما الذين صدروهم حديد ورؤسهم حجر فلا تنال منهم فلسا أبيض، ولولا الفئة الأولى لما بقي أحد يحفظ القرآن. أليس كذلك يا "سليط" ؟. رد "سليط" : "واضح، واضح انك تفهم في بيض البط كما تفهم في الصدقات، ولو أني أسمع أن الصدقات إنما تكون للفقراء والمساكين و.. ما علينا، ذكرت الخطأ الأول فما الخطأ الثاني يا "سي برحاجة" ؟

رد "بوحاجة" بنبرة تجمع بين الارشاد والاستخفاف: "لاينبغي، لايجوز، اسمح لي يا أخي، عيب، عيب أن تذكر آيات من القرآن لا تحفظها حفظا، القرآن ليس أي كلام."
فوقع "المنور" على كلام الفقيه- بعدما نشق من سعوطه-: "صحيح يا سيدنا، القرآن ليس أي كلام، ولا يجوز ولا يجب العبث به." فأدار "سليط" رأسه بعض الوقت ليقول للفقيه: "هذا أكيد، وأنت هل تحفظ القرآن حفظا؟"
رد الفقيه : "أحفظه حفظا. "
وعقب "المنور" وهو يمسح أنفه من السعوط: "ويقرأه كالماء الجاري."
قال "سليط" بنبرة المتسائل: "عجيب، ولكن ما أعرفه أن "سي بوحاجة" – وقد تذكرت اسمه اليوم- هو حارس غابة.؟"
قال الفقيه بنبرة حادة مصححا: " لست حارس غابة، بل كنت أحرس"زريبة النحل" التي في ملك والد "سي المنور" والتي كانت موجودة بالغابة."
قال سليط مبتسما: "سبحان الله، "سي بوحاجة" يفهم في البيض ويفهم في الصدقات، ويفهم حتى في النحل."
قال الفقيه بحدة واستياء: "دعك من هذا، أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني، ولم يسبق لنا أن تعارفنا، فكيف عرفت ما عرفت؟ "
فقال "سليط" بعدما نظر الينا،: "أخبار الدوار في رأس العطار."
همست للهجهوج: "أخيرا سيفسر جملته الهيروغليفية."

قال الفقيه وقد ازداد جده واستياؤه: "لم أفهم هذا الكلام، يبدو أن رأسك تؤلمك، هل تريد بعض الشاي؟ الشاي برغوته، التسليم."

قال سليط: "صحيح، أن رأسي بها صداع، ولكن رأسي هذه لا تريد شايا، تريد أن تسمعك وأنت تقرأ عليها" وأمرأته حمالة الحطب."

فكر "سي بوحاجة" وقتا، مقلبا،مستغربا الطلب في رأسه، ثم نطق:

"لا تمزح، أنعبث بالقرآن.؟"

قال سليط بإصرار: رأسي تريد أن تسمع منك "وامرأته حمالة الحطب." ومقابل قراءتك أعطيك خمسة دراهم من مبلغ البيض."

رد الفقيه باستياء وازدراء: "ولو أعطيتني عشرة."

فطالبناه –أنا والهجهوج– بقراءة "وامرأته حمالة الحطب" على أن يكون المبلغ من نصيبنا.

فقال"لا" بحركة من رأسه المرقعة، وقال بلسانه الطويل: "أنتما لا تقرآن القرآن كالماء الجاري."

وتدخل "المنور" ليقول للفقيه: "شيئا لن تخسر، سمعه "وأمرأته حمالة الحطب. " قد يكون فيها شفاؤه، المبلغ مازال تحت يدي، سليط لا يتراجع عن وعده."

فقال الفقيه شيئا من "لا" بحركة من رأسه، لكن "المنور" واصل إغراءه: "اقرأ ولك علي أن أحدث والدي في الغرض المعلوم".

نظر إلينا الفقيه نظرة المغلوب المكابر، ونظر إلى "المنور" نظرة المغلوب المعاتب.. استوى في كرسيه، أطرق بعض الوقت، حوقل، استعاد بالله من الشيطان الرجيم، بسمل، ثم قرأ سورة "المسد" وأمعن في رفع صوته ومده وهو يقرأ: "... وامرأته حمالة الحطب"

قال "المنور" لسليط بعدما أنهى الفقيه السورة. "سأعطيه المبلغ، حلال عليه."

ففاجأنا صاحبنا "سليط" وهو يقول: "اترك الفلوس تحت يدك، واذا أجابني "بوحاجة" عن هذا السؤال ناوله الفلوس كلها، أتقبل يا "سي بوحاجة" ؟

ظل الفقيه ينظر إليه مترددا حتى ناب عنه "المنور" قائلا: "قبل، فاسأل."

استعاذ "سليط" بالله من الشيطان الرجيم، سكت وقتا، ثم تابع وهو ينظر إلى الأرض: وامرأته حمالة الحطب.. منذ ثلاثة أشهر يا "سي بوحاجة" وجدت امرأة تحتطب في الغابة حيث توجد "زريبة النحل التي كنت تحرسها. هل هذا صحيح ؟"

شخص الفقيه ببصره بعض الوقت، تغضنت ملامحه من الاستياء ثم سأله:

– عن أي امرأة تتحدث ؟

– عن امرأة قاربت الخمسين، كانت ترتدي قشابة حمراء، تنتعل نعلا من المطاط، وعلى ظهرها حزمة من الحطب.

قال الفقيه باستياء متزايد: "زد، زد، وفيِ جيدها حبل من مسد."

قال "سليط" ببرودة حارقة لاسعة اقشعرت لها أبداننا:

"لم يكن في جيدها حبل من مسد، بل حبل صغير شدت فيه صرة وفي الصرة كانت عشرة دراهم أخذتها المرأة تسبيقا لمن خرجت تحتطب لهم. أنت قلت لها: "أنا حارس الغابة، الاحتطاب ممنوع، بهذا أوصاني أصحابها؟"
وهي قالت لك مستعطفة: "اتركني أذهب بهذه الحزمة، حزمة من الأعواد اليابسة لن تنقص من هذه الغابة الواسعة." ولكنك يا "سي بوحاجة" لم تترك حمالة الحطب تنصرف حتى أخذت منها الدراهم العشرة التي كانت في الصرة، الصرة التي كانت مشدودة إلى حبل رقيق حول جيد المرأة، ألم يحدث هذا ؟"

تغير لون "سي بوحاجة"، كور قبضته وهو يخاطب "سليط" بعصبية انزاح معها قب الجلباب عن رأسه فبانت عن كاملها صلعته:

"حدث ماذا ؟، حدث هذا في رأسك المريضة، أكيد أن هذه المرأة التي تتكلم عنها هي العفريتة التي تسكن رأسك، وهي التي توحي لك بهذا التخريف والهذيان، ولكن نحن – الفقهاء – نعرف كيف نصرع العفاريت والعفريتات التي تسكن رؤوس أمثالك. هل تريد أن أجرب فيك؟

صب علينا "سليط" الماء والجمر وهو يقول: المرأة التي تسكن رأسي ليست عفريته، ليست جنية بل هي "انسية"، إنها خالة زوجتي، قصت على زوجتي وزوجتي قصت علي ما أسمعتك الآن."

ضاق الفقيه من البخار الناتج عن مياه وجمار "سليط" فانتـــفض في كرسيه ثم قام ليقول شيئا، لكن "سليط"

أسكته باشارة من يده، وتابع كأنه مفاعل نووي: "ولست في حاجة إلى أن تصرع هذه العفريته في رأسي، فقد حدث وصرعتها في الغابة يوم وجدتها للمرة الثانية تحتطب، سألتها: "هل حول عنقك حبل به صرة فيها عشرة دراهم؟" قالت: "لا" قلت لها: "اخلعي سروالك."

تأفف الفقيه بأقصى ما يستطيعه، وقد بدا لنا أن الأشعة النووية عصفت بدواخله.. نظر إلى "المنور" الذي لم يعرف كيف يداري امتعاضا وإدانة وإشفاقا ارتسمت ظلالها على محياه.. استعاذ الرجل من الشيطان الرجيم مرتين والثالثة وصلتنا منه وهو خارج الهري.

خرج "سي بوحاجة" وبقي سيدنا "سليط" متربعا عل كرسيه، تملأ رأسه المرقعة الهري، وبخوره وبخاره وأشعته النووية تملأ صدورنا بمشاعر متناقضة؛ تنقلنا من الضحك إلى التأسف إلى الانتقاد، وبين هذا وذاك يرشقه أحدنا بهذه الجملة التي تختزن المدح والقدح: "عليك اللعنة."

كنا، ونحن على تلك الحال، نعتقد أن "سليط" طوى لسانه، لكن الأمر لم يكن كما اعتقدنا: فقد قام إلى المنضدة ليجمع النقود الموضوعة فوقها تحت نظرات "المنور" الذي لم يتوقف لسانه عن اللعنات. وبعد أن دس المبلغ في جيبه مد يده إلى "المنور" قائلا: "هات عشرة دراهم."

رد "المنور" ناهرا: " فلوسك لا ينقص منها سنتيم،

قال "سليط": "عددتها، لايزيد عنها سنتيم، اعطني الدراهم العشرة التي أخذها "بوحاجة" من خالة زوجتي حمالة الحطب لأردها لها."

رد "المنور" محتجا: "وهل أنا من أخذها حتى أردها ؟"
قال "سليط " بنبرة المفسر أمرا لا داعي لتفسيره: "ألم يسبق لك ياصاحب الصدقات أن سمعت بالحديث الذي يقول: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ؟"

وسكت قليلا ليتابع وهو يحك رأسه المرقعة: "أم تريدني أن أذهب عند أبيك "الحاج" وأقول له: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن بهيمته؟"

حملق فيه "المنور" كالمنوم، أخرج الورقة النقدية من جيبه بآلية، وناولهاله قائلا:

"التسليم، التسليم، خذ واغرب عن وجهي، لا أريد أن أراك سبعة أيام بلياليها."

تناول "سليط" الورقة، قصد الباب وهو يقول دون أن يلتفت الينا: "سأعود، سأعود لآخذ سلتي، ولأحدثك بتفصيل رأسا لرأس عن اللقاء الثاني الذي صرع فيه صاحبك حمالة الحطب."

18 نونبر 1999
سيدي يحيي الغرب

الباب الرابع

- ثعبان "بويا رحال"
- الأسد الحكيم

"كتاب "ألف ليلة وليلة" مستملح محبوب لأن صاحبه مجهول !!"

(المؤلف)



ثعبان "بويـا رحـال"

بركة "سيدي رحال" أو "بويا رحال" معروفة بين الكثيرين؛ وهي أن جسمه معقم ضد السموم: لاتنال منه لسعات الثعابين ولدغاتها، ولا نهشات الأفاعي ونكزاتها. وكذلك أولاد "سيدي رحال" حملوا البركة جيلا عن جيل. ومن هذه "البركة" يكسب البعض رزقهم متوسلين بالحلقة حيث يظهرون للناس السر الذي ورثوه. وأذكر أني وقفت على شيء من هذا السر وأنا في "قلعة السراغنة". والقلعة "هذه يفصل بينها وبين "سيدي رحال" حوالي خمسون كيلومترا."

أذكر – وأنا في "القعلة مع صحبي خلال صيف 1976 – أنا رأينا، ونحن في جولة المساء، الولد "البـودالي" أمام باب حانوته الضيق يطل برأسه داخل الحانوت ثم يخرجه ويقلب بصره في الطريق، كأنه يبحث عن شخص، كأنه يريد قول شيء يخاف الجهر به؟ وتكرر فعل "البودالي" أمام أعيننا مرات، فلما وقعت عيناه علينا وقف وكأن حبل النجاة مد إليه. أشار الينا بيديه، حتى إذا أدركناه بادرته: "كأنك تريد أن تستغيث وتخاف فضيحة الاستغاثة ؟" فرد باستسلام: "عرفت الأمر وقلت ما في البال، في حانوتي ثعبان، وخرجت ألتمس مغيثا يغيثني دون أن يفضح جبني. "فسأله واحد منا:" أهو ثعبان أم "زرغميل" أم دوختك الشمس" ولم يكن لـ "البودالي" وقت ولا مزاج فقال:

"من الباب يمكنكم أن تروه، انظروا إلى الزاوية اليمنى، سترونه مكوما في شق بين الحائط والسقف." مددنا اعناقنا،

رأينا الثعبان حتى شبعنا من منظره، ووقفنا نتساءل بعيوننا. كنا ثلاثة جمعنا العمل والكراء، رابعنا ولد ظريف مخدام اسمه "لمزابي"، دلنا على صاحب الملك، ولازمنا في الدار، يعيننا بالداخل ويأتينا من الخارج بالأشياء التي نحتاجها، ما أحل منها وما حرم ،آناء الليل وأطراف النهار..
قال أحدنا دفعا للصمت:
- هذه البيوت الطوبية، حيطانها طوب وسقفها طوب وأعواد، لاتخلو من ثعابين وعقارب و..
فقاطعته: "دع وصف الأسباب وابحث لصاحبنا عن حل"
فسكت وسكتنا حتى نطق الولد "لمزابي" : "عندي الحل."
فانجذب إليه "البودالي" يكاد يصرخ: "أغثني."
قال "لمزابي" : "أعرف ولدا "رحاليا" الأفاعي والثعابين لا تنال منه حقا ولا باطلا."
سألته: "أهو من أولاد "سيدي رحال" ؟
قال : "أبوه من" أولاد سيدي رحال "وهو ورث سر أبيه (واختلس النظر إلى "إبراهيم" ليتابع):" وهو أخو "الحنشة ".
فصوبنا مدافع عيوننا إلى صديقنا "إبراهيم" نرميه بالبسمات الخبيثة وهو مطرق برأسه يتحاشاها، لأن "الحنشة" – أنثى الثعبان – هو لقب منا لمومس كانت تدمن التردد عليه في الدار التي نسكنها، وكانت في حالات السكر تحكي لنا عن الأفاعي والثعابين التي يتكسب بها أبوها في الحقلة، وكيف تخرج في بعض الليالي من الصناديق عندما يغفل الأب اقفالها وتتجول في البيت وهي تمشي بينها غير عابئة.. وتحكي لنا عن صباحات تستيقظ فيها من النوم لتدفع ثعبانا بات متكوما قرب قدميها، أو تطرد أفعى قاسمتها الوسادة..

ولم نطق صبرا على الضحك إلا الولد "البودالي" فقد كان متوترا ، فأمرت الولد "لمزابي" : "طر إلى حيث أخو "الحنشة"، أحضره حالا قبل أن تزهق روح "البودالي".
فغاب "المزابي" والتفت إلى "إبراهيم" قائلا:
"يا للخسارة ! لم ينلك ولا قليل من "بركة الحنشة" !
فأجاب وهو يجارينا في ضحكنا:
هي "رحالية" وأنا "سوسي"، لها بركة "سيدي رحال "ولي بركة "سيدي أحماد أو موسى" إن شئتم أريتكم." فعلق ثالثنا وهو يلقي نظرة على الثعبان:
"سيدي احماد أو موسى" بركته في القفز والشقلبات، ولكن يا سيدي ابراهيم أو موسى" هذا ثعبان وأي ثعبان ! ولا ينفعك معه قفز ولا شقلبان !"
.. مكثنا كذلك نطل على "الحنش" ونتداول صاحبنا "ابراهيم" صاحب "الحنشة" حتى وقف علينا "لمزابي" مصحوبا بأخ "الحنشة"، وقال لينبهنا: هذا هو، هذا هو "حجاج"
تأملنا "حجاج" وقتا: ولد تجاوز البلوغ، نحيف يميل إلى الطول، يرتدي واقية زرقاء فيها بقع دهن سوداء، لم يكن فيه شيء مميز إلا جرح مندمل في الجبين فوق العين اليمنى. أما هو فتبادل مع "البودالي" تحية المتعارفين وسأله:
"أين الثعبان ؟"
فدله "البودالي" على المكان. وسأله: "هل لك سلم؟" فدله على السلم.
تزاحمنا حول الباب الضيق نتابع "حجاج" وهو يصعد السلم حتى وصل إلى حيث كمن الثعبان، أمسكه بلا

تردد كما يمسك الجماد، أدخله في جراب جاء به، ثم نزل بهدوء وخرج من باب الحانوت في هدوء، ونحن نفسح له المكان حذرين محترسين مكبرين ،ثم ودعنا راجعا من حيث أتى ليتركنا محملقين.. حتى إذا دبت الحيوية في صاحب الدكان دب النطق في لساننا فهنأناه على النجاة من الثعبان ومن الفضيحة. وتابعنا جولتنا المسائية مشغولين بالحديث فيما حدث، ما سكين بملقاط التفكه، في "قشابة" صاحبنا "ابراهيم" يحالفنا الولد "المزابي"، الذي يزداد في مثل هذه المناسبات ظرفا ومكرا ومناوشة.

سأله "إبراهيم": – أين وجدت "حجاج" ؟

أجاب: – في محطة الحافلات.

ـــ وماذا يفعل بين الحافلات؟

ـــ يشتغل حمالا خلال موسم الصيف، ألم تر ثيابه! (ونظر إلي نظرة ما كرة توحي بتغيير مجرى الحديث).

فهجمت على صاحبنا قائلا: "ولماذا كل هذه الأسئلة؟ انتظر حتى تزورك "الحنشة" فتعرف منها كل التفاصيل."

فردد "إبراهيم": – يا لطيف، يا لطيف!

أما "المزابي" فعقب بمكر: "يبدو لي أنها ستشرف الدار هذه الليلة، هذا ما اوحت به هذا الصباح." وظل "إبراهيم" يردد: "يالطيف، يالطيف !"

أما "المزابي" فتمادى في شيطانيته: "ويبدو أن الدار ستعرف الليلة مباراة حامية بين الثعبان والقرد" فما ملكنا أنفسنا من الضحك ولم يملك "إبراهيم" رجله فركل الولد قائلا: "اللعنة على أمك، هذه "الشيطنة" التي فيك هي التي عجلت بخروجك من المدرسة."

وكان يهم أن يمسك به لـ "يُقَرْقِدَهُ" فأحطنا به نمسكه عن ذلك ضاحكين، وصاحبي يقول له: "إن شاء الله، بركة "سيدي احماد أو موسى" ستنتصر على بركة "سيدي رحال".. فهزه الضحك حتى ارتخى ونظر إلى الولد "المزابي" نظرة تسامح وعطف فاقترب هذا الأخير مطمئنا لأسأله:

ـ "رأيت في جبين "حجاج" علامة، ما يكون ذلك"؟

فقال: "أنت دائما تبحث عن الشوكة في الوحل، تلك حكاية تحتاج إلى "باكية" من السجائر لتروى." فأخرج كل منا دراهم جمعتها لأضعها في كفه قائلا: "حلال عليك الـ "ماركيز".

دس الدراهم في جيب وطلع من الجيب الآخر بسيجارة أشعلها. أخذ من الدخان ما أخذ ونفث ما نفث ليقول: "ما ألذ كأس قهوة "نص ـ نص" نشربها في مقهى "سيدي رحال"! والشارع أما منا يجود بما يشغل البال واللسان."

في مقهى "سيدي رحال" انزوينا حول طاولة عليها فناجين القهوة "نص-نص"، في أيدينا سجائر مشتعلة، عيوننا متشوفة يشدها "المزابي" بوجه أملط نبت فيه المكر والظرافة وهو يحدثنا:

"سألتني يا سيدي عن العلامة التي في جبين "حجاج"؟ (وسكت لحظة فهممت أن أسأله فقاطعني): لا تسألني كيف؟ سأحكي لك "الكيف" مقصصا: يقول الناس - والله أعلم - أن "حجاج" عندما بلغ الثانية عشرة أخذ أبوه يعلمه النفخ في الغيطة لإرقاص الثعابين، لكن الولد كان يبدي بعض الممانعة في التعلم رغم قدرته على ذلك. وأحس منه الأب ذلك فأصر على أن يتعلم ابنه العزف على

الغيطة،وأصر على أن يتقن ابنه "النوطات" "الرحالية" المتعارف عليها بالدقة التي تنفذ إلى روح الثعابين وترقصها. وحقق "حجاج" ما قر عليه إصرار الأب، لكن عنادا في تركيبة "حجاج" كان يجعله أحيانا يغير في النوطات "فتظهر النرفزة على الثعابين وعلى أبي "حجاج": الثعابين تخمد فيها جذوة الرقص، وأبو حجاج يشتعل فيه الصراخ والزعيق: "قلت لك ألف مرة لا تغير من العزف نغمة واحدة، ما تركه الأسلاف يجب حفظه والمحافظة عليه." فيجيب "حجاج" وقد رمى بالغيطة: "وأنا قلت لك ألفي مرة إني لست بحاجة إلى الغيطة، إني قادر على مخاطبة الثعابين بلغة تفهمها وتنفذها."

فيزداد زعيق الأب: "هذا الأمر لن يكون، الغيطة لابد منها أحببت أم كرهت، عندما تبدأ الشغل بالحلقة من لك بجمع الناس إن لم تكن لك غيطة ؟"

كل هذا – يا سادة – كان يحدث خلال التداريب ليخرج "حجاج" إلى الحلقة يساعد أباه ثم يحمل عنه سر بركة "سيدي رحال" ويتابع المشواروحده. كل هذايا "سي ابراهيم" كان يحدث بالبيت حيث عاشت وتعيش "الحنشة". فرنا إليه إبراهيم، أستاذ الفرنسية، بجفن حالم ورشف رشفة قائلا: "سمحنا لك بهذا واحتسيناه مع القهوة، وماذا بعد ذلك يا صاحب "النوطات" يا "رامبو"."

فرشف "المزابي – رامبو" من فنجانه، ومد كفه على الطاولة مفرجا وسطاه وسبابته وبقي كذلك حتى وضعت بين أصبعيه سيجارة أشعلها وتابع: "وذات يوم يا –سيدي ابراهيم– كان النفخ في الغيطة على أشده، والثعابين تتلوى على إيقاع "النوطات الرحالية"، فاذا بالعناد يركب رأس "حجاج"، وإذا به

يغير الإيقاع، وإذا بالنرفزة تظهر على الثعـــابين، وإذا بـــأب "حجاج" يخطف الغيطة من فم "حجاج" ويرفعها إلى الأعلـــى ثم يهوى ببوقها على جبين "حجاج" حتى غاصت حاشية من البوق في اللحم، ففرت الثعابين إلى الصناديق والزوايا، وفر جلد الجبين عن بعضه ليتدلى جزء منه بلحمه وشحمه ودمه على العين اليمنى لـــ "حجاج".

وسكت الحاكي، وسكتنا بعد سكوته سكوتا.. يلفنا دخان التبغ، نقطع الصمت برشفات القهوة. ثم انتبهنا إلى الشارع حولنا.. قلنا كلاما كثيرا.. لكن كل الكلام لم يمح ذرة واحدة من محلول السحر الذي نفثه في مشاعرنا حكي الولد "لمزابي – رامبو".

ظلت الحكاية تملأني طوال جلستنا في المقهى، ظلت تملأني ونحن نتابع تجوالنا، وظلت تنتغش في وجداني طوال الأيام التي تلت الجلسة، وطوال الشهور وطوال السنين. وظل الولد "المزابي" جاثما في صدري يحكيها وسط دخان السجائر الذي تمتصه رئتي، يحكيها ويعيدها بنفس المكر والظرافة حتى وجدت نفسي وجها لوجه مع الحكاية وهي تتجلى في مظهر جمع ما لم يجمع مظهر من العنف والغرابة! وجدت نفسي وجها لوجه مع الحكاية وبيني وبين "المزابي" زمان مقداره سبع سنوات، وبيني وبين "القلعة" وسيدي رحال" مسافة مقدارها آلاف الكيلومترات: كان الصيف، وكنت في مقهى لا تسمى "سيدي رحال" بل سموها "كرنفال"، لا توجد بالقلعة بل بضاحية من ضواحي "باريس" اسمها "كليشي". وهي بلدة فيها كثير من المغاربة، كثير منهم سوسيون يملأون شارع باريس أكبر شوارعها بالمحلات

التجارية، حتى المطاعم والمقاهي لهم منها نصيب. كنت أحتسي قهوة سوداء وأتابع ملصقات سياحية حتى وقعت عيني على ملصق للفلكلور المغربي: القلعات التاريخية، الواحات الصحراوية، فرق الرقص بأزيائها، "جامع الفنا" بطبوله وغيطاته وأفاعيه وثعابينه.. وسرحت عيناي في الثعابين والولد "المزابي" يحكي في صدري حكاية "حجاج" وأنا مأخوذ أتابعه حرفا بحرف... "وفرت الثعابين إلى الزوايا.. وفر جلد الجبين عن بعضه ليتدلى جزء منه بلحمه وشحمه ودمه على العين اليمنى لـــ "حجاج". وحين سكت صوت "لمزابي" في صدري دوى في أذني صوت الإنذار منبعثا من سيارة الأمن. فتوالت التساؤلات من جوانب المقهى: "آشكون هاذ الزغبي؟" "من هو هذا الشقي؟". ولمحت كما لمح غيري "الزغبي – الشقي" يجتاز واجهة المقهى، يجري جري متعب يوشك على الاستسلام وسيارة الأمن –في شارع باريس– جادة في ملاحقته. تركت مكاني مدفوعا وراءه. عرفت بحس الذي ذاق المطاردة أنه يريد الحديقة الممتدة بمحاذاة "شارع باريس"، فلها أكثر من مدخل ومخرج يفضي إلىطرق فرعية. حين وصلت إلى سور الحديقة كان "الزغبي – الشقي" على بعد بضعة أمتار من أول باب، لكنه توقف، وما كان له إلا التوقف: فقد أبصر أمامه، في الاتجاه المعاكس، سيارة ثانية للشرطة تقصد الباب الذي يريده، منبهها صارخ واثنتان من عجلاتها فوق الرصيف، ومن بابها الأمامي يطلق شرطي رصاصات متقطعة صوب جدار الحديقة القصير المنبت بقضبان حديدية طويلة.. وعلى بعد أمتار معدودات من الباب صر حصار السيارة صريرا وقد

أوشكت أن تدهم طفلة تجري مذعورة صوب الحديقة حيث وقفت أمها متحنطة لا تعرف أتصدها أم تدعوها. لكن الصغيرة، قبل أن تدرك الباب لتلتحق بأمها، أنهدت ركبتاها لمرأى ثعبان أسود لم تستطع تخطيه فانشبحت أرضا، وبسرعة رفعت ناظريها تهم بالوقوف لكنها لم تبصر إلا الثعبان نصب عينيها متكوما شاهرا رأسه قبالة رأسها، فاندفن وجهها في الأرض ومن حنجرتها انطلقت صرخة "ماما" خرجت معها كل الحبال الصوتية حتى قال الناس متفجعين: "روح البنت زهقت، قلب الأم تهشم." والله أعلم بما وقع في الطفلة، أما الأم فبدا واضحا أن قلبها تهشم: في البداية جرتِ نحو فلذتها على رجلين فخارت الرجلان، فأخذت تحبو على الركبتين والراحتين حتى صاح فيها شرطي كان قد نزل من السيارة الثانية المطاردة للثعبان: "مكانك سيدتي، أي اقتراب من ابنتك فيه خطر عليها وعليك، إنها بخير، سنتصرف." فتصنمت كما هي حيث هي. وصاح ضابط الشرطة وقد نزل من السيارة الأولى في "الزغبي الشقي" وهو يتحرك نحو الباب: "أنت مكانك، مكانك لا تتحرك." لكن "الزغبي" لم يبال بأوامره حتى وصل الباب، وما بقي بينه وبين الثعبان الشاهررأسه قبالة الطفلة المنبطحةإلا مقدار خطوة! أحكم قبضته حول قضيب حديدي، شرع ينظر إلى الثعبان ويضرب برأسه على القضيب ضربا يشتد ويفتر.. تأزم الوضع؛ فريق كل سيارة متأهبون، ضابطا الفريقين يتشاوران، وجوه المحتشدين غائمة.. انتبهت لنفسي فضبطت شفتي تبتسمان؟ وددت لو أقتلعهما وعنفت نفسي تعنيفا: "أخزاك الله ياحمار هل هذا وقت التبسم!

فانزمت شفتاي وتحركت رجلاي حتى أصبحت قدام باب الحديقة حيث تكاب مغاربة وفرنسيس. كف "الزغبي" عن ضرب الحديد برأسه واستتدار بوجهه كاملا صوب الشرطة والناس، لمحت الجرح المندمل فوق العين اليمنى فرن هاتف صدري: "حجاج" انشدت عيناي إليه وأنا أعجب للقوة الخفية التي حركت شفتي بالابتسام قبل لحظات! وخمنت تخمين الواثق، دون كل هؤلاء المحتشدين، أن "حجاج" كان "ينطح" الحديد تعنيفا لنفسه وندما على عدم استمراره في الفرار.. وتساءلت وفي وجوه الكثيرين نفس التساؤل: "هذا الزغبي ما وقوفه؟ ماذا ينتظر، لماذا لا يفر داخل الحديقة؟ لن يستطيعوا اطلاق النار والبنت تحت رحمة الثعبان."

وسوست لي نفسي أن أومئ لـــ "حجاج" بكفي أن يفر، خفت أن تضبطني عين من عيون البوليس، عن لي أن أحدث الضابطين في شأنه فخفت؟ أمام البوليس يصبح الخوف أقوى الخصائص تعبيرا عن أصالة المغربيين! غير أن ظهور الصحفيين سرى عني كما سرى عن "حجاج" الذي ثنى ركبتيه واستوى على عقبيه يمسح رأس الطفلة المشبوحة غير عابئ بالثعبان وقد كثرت حركات رأسه المشهور وكثرت معها الهمهمات بين المتجمهرين. زاحمني صحفي بمصورته فقلت له: "من فضلك، أنا مراسل مغربي، هل تقدمني لضابط الشرطة، عندي الحل في أقصر وقت ودون خسارة.."

فغرفاه لحظة، مسح بعينبه الجاحظتين بطاقة فوق تُنْدُأتِي، ثم جرني من يدي ثم دفع بي إلى الضابط قائلا: "سيدي، هذا السيد يزعم أن بإمكانه الحل في أقصر وقت ودون خسارة،

أليس كذلك يا سيدي ؟" فقلت متعجلا: "ذاك الشقي أعرفه، لا الأفاعي ولا الثعابين تنال منه : إنه "مُبَسْتَر" ضد سمومها، لا تبحثوا عن تفسير.. سيكفيكم شر الثعبان وينجي البنية، دعوني أكلمه."

استغرب الضابطان كلمة "مبستر"، لا كاها مبتسمين، أذن لي الذي استأذنته بإشارة من رأسه بعدما تشاورت نظراتهما. تقدمت خطوات وصحت: "حجاج، ياحجاج".. وقعت عيناه علي، هب واقفا ينصت وأنا أكلمه بصوت مرتفع: "قد عرفتك يا حجاج، وأنت قد عرفتني، قد يكون الله هيأ لك فرصة ما للخلاص، أنقذ البنية، وبعد ذلك يفعل ربك ما يشاء."

فكر "حجاج" وقدر ثم زفر خليطا من المغربية والفرنسية.. انحنى على الثعبان وقتا يكلمه بطريقته الرحالية، ثم تناوله، ثم وضعه حول عنقه فانفلتت من المحتشدين الأصوات: أوه! أولا! أولا لا!! يالله!.." وغطي صوت "حجاج" على الجميع: "و ابلادي، قل لهم يأتوا لبنتهم."

وصل الخطاب،أمرالضابط، فمرق رجلان من رجال المساعدة بسرير حملا عليه الطفلة إلى سيارة إسعاف كانت قد وصلت منذ زمن، ثم عادا إلى الأم لتنطلق بهما. بدا الانشراح على وجوه الفرنسيين، اختلط الإعجاب والإشفاق في وجوه المغربيين، تنفس الشرطيون ال "أوفات" وال "أوهات"، وشرعوا يصرفون الناس، لكن الناس شد الموقف عيون وأرجل بعضهم، وشد عيون وقلوب بعضهم.. ألقى الضابط نظرة على الصحفيين وهم جادون في التقاط

التفاصيل بحركاتها وسكناتها فخاطب أحدهم بنبرة ماكرة: "كان الأولى أن تكونوا إلى جانب البنية وماماها.."

رد صحفي من نفس المكيال: "أمر تم يا سيدي الضابط، انطلق بعضنا وراء سيارة الإسعاف، لماذا تريدون أن تفوتوا علينا ما بقي من اللعبة؟"

فتحاشاه، مداريا حنقا وخاطب "حجاج" :"بصوت جاف: "افهم يا أنت، ارم السلاح الذي معك، فهذا خطر عليك، واعلم أن الثعبان الذي حول عنقك هو أيضا سلاح يعرضك للمكروه، اسمع وافهم: سترمي السلاح أرضا بكل هدوء، وسنمدك بهذا الكيس لتضع فيه الثعبان، وسلم نفسك، هذا في مصلحتك."

أحسست بتيبس في حلقي وأنا أتفرس ملامح الضابط، وأتابع تحركات ومظاهر التأهب في صفوف الشرطيين، و أعصابي كاد يتلفها توقع كارثة ما لولا أمل كنت أستمد بعضه من تواجد الصحافة، وبعضه من شعور داخلي تنبض به عروقي.. ابتلعت ريقي لأجهر لحجاج بكلام، لكن كلام الضابط عن السلاح المحمول بقدر ما عقد لساني بقدر ما فكك وبعثر قدرتي على استخدام المصورة التي بين يدي والمصورة التي في رأسي..

"حجاج" سمع، سمع وفهم.. ظل صامتا صارم السحنة، يتراءى الجرج في جبينه شاهدا على عناد لا يعرف سره سواي.. ظل كذلك وقتا قصيرا ثقيلا، خلاله التقطت عدسة عيني ومضة لبسمة شاحبة رسمت ما رسمت عبر خريطة السحنة الصارمة.

"ما أشك في أن كل الآلات الفوتوغرافية بكل تطورها الجهنمي التقطت السحنة الصارمة لتعرضها على الصفحات بكل تضاريسها وظلالها، لكن تلك البسمة الوامضة ما كان في مقدور أي منها القبض عليها!" قلت هذا في نفسي، وقلت لنفسي بأنني الوحيد من قبض عليها ليس بآلتي المصورة انما بعيني المشدودة إلى مخي بالأعصاب المشدودة إلى تلافيف الباطن بقوة الروح...

تلك البسمة الشاحبة أعادت الأمل ينبض في عروقي بعد أن أطبق عليه وقتا كابوس الخوف من كارثة ما عند ذكر السلاح المحمول.وتزايدت النبضات في عروقي وأنا أتابع "حجاج" يتخلص من الثعبان ليتخذ له مكانا خلف قدميه، وهو في حالة استنفار، شاهرا رأسا كالرمح، ثم شرع في خلع الثياب عن نصفه الأعلى لينـــشر "الجاكيتة" الجلدية على الثعبان، وليضع هذه "الجاكيتة" مكومة في زاوية من باب الحديقة! بعدها أخذ يغدو ويروح أمام السر المحجوب كما يفعل أولاد "بويا رحال" في الحلقة.

وقتئذ شع في داخلي حدس انكشف لي عبر شعاعه سر البسمة الشاحبة التي ومضت قبل قليل عبر سحنة "حجاج" الصارمة. حدثت نفسي: "حجاج لا يحمل سلاحا.. بعض الصحف تعيب على الشرطة توظيفها لمخبرين من المهاجرين السريين.. مقابل الخدمات الوسخة تعدهم بتسوية ما لوضعيتهم المتسخة.. "حجاج" يريد تعاطفا شعبيا، "حجاج" لم يفته وجود الصحافة، لم يفته وجود مراسل مغربي، لم يفته أن في المتجمهرين عشرات المغاربة.. انه سيقامر ببركة "بويا رحال" سيقامر بالحلقة بكل ما فيها من مكر

وصنعة وتهور واندماج وفيض من أجل نهاية أقل مأساوية.. تنقصه "الغيطة"، ولكن سبق أن قال لأبيه: "لست في حاجة إلى الغيطة، أستطيع أن أكلم الثعابين والأفاعي فتفهمني وأفهمها بدون غيطة."

.. وانحبس الحديث في صدري لسماعي صوت "حجاج" ،وقد توقف عن الغدو والرواح رافعا يديه، عاري الجذع، منتفخ الودجين، يتكلم الفرنسية والمغربية المترجمة إلى فرنسية: "السلاح، ما معي سلاح، أولاد الحرام كذبوا عليكم، المساكين يبحثون عن "السيجور" بكل الطرق.. ما معي إلا الثعبان.. وحق "بويا رحال" وبركة "بويا رحال" ما ينالكم منه شر إذا لم تمسوه ولم تمسوني بسوء.. كان بإمكاني الفرار لما تكوم خلف رأس البنية، لكن البنية عزت علي، البنية الآن بخير، الثعبان عز على أيضا، ومن حقه أن يبقى بخير، ما فعل ما فعله إلا دفاعا عن روحه، عن حقه في الحياة. هذا الثعبان يجب أن تعرف الصحافة ويعرف الناس حكايته، لو عرفتم حكايته لأشفقتم عليه. صدقوني فقد كلمته وكلمني فاتضح أن كلينا يعرف الآخر: قال لي المسكين: "أتذكر يوم التقطتني من حانوت صغير ببلدة اسمها "القلعة" ؟ قلت: "أذكر، كان ذلك منذ سنوات." قال: "وحدثت لنا أحداث ثم افترقنا لنقطع آلاف الكيلومترات، لنصل إلى هنا، ليطاردنا البوليس في نفس اليوم والمكان، ولا أنت ولا أنا ندري ماذا يكون المصير؟؟" قال "حجاج" هذا (وخلع نعليه ليضعهما فوق "الجاكيتة" الجلدية حيث حجب الثعبان..) فجاء صوت الضابط منبها تنبيه من نفذ صبره: "كفى، كفى، كف

عن هذا "السيرك"، افعل ما أمرناك به والا سنضطر لاعمال القوة."

استجاب "حجاج" بحجبه "الجاكيتة" خلف ساقيه ورفع يديه في حركة استسلامية متابعا: "زحف المسكين من القلعة إلى دوار "أولاد كليب" ثم قطع "وادي العبيد" ثم اجتاز قفار "أولاد زيدوح" حتى وصل "الفقيه بن صالح". مكث مختبئا يعيش على قليل القليل، باحثا بين سيارات المهاجرين عن سيارة صاحبها "رحالي" طلبا للأمان، عثر على واحدة تسلل من بابها، كمن تحت المقعد الخلفي كاتما أنفاسه، قانعا بالفتات، مستعينا على الجوع بالنوم حتى وصل إلى هنا، إلى قلب فرنسا. هجر بلاده وعبادها، مل العيش في الصناديق، سئم الحلقة، مرضت روحه من التفرج على أشقياء مقهورين يتفرجون على شقي مقهور، تحمل كل هذا العناء من أجل عيش كريم." فتردد الهتاف بين بعض المحتشدين: "يعيش يعيش الثعبان." ازدادت أوداج "حجاج" انتفاخا وبان الزبد على حواشي شفتيه فاسترسل ناثرا بعضه: "الشقي لا يملك جواز سفر، ما كان بامكانه التمتع بهذه الوثيقة فهو مأجور بلا أجرة. أما أنا فلي جواز السفر لكنه بدون تأشيرة، هو لا يملك أوراق "السيجور" بينكم، ولا أنا، إنه لمصير سيء سوء المصير هذا! ولكن لا يجب بحال من الأحوال قتل الثعبان، حرام قتله إلا إذا قتلتموني." فعاد الهتاف: "يحيى الثعبان يحيى الثعبان."

تحرك الضابط الذي نفذ صبره من مكانه، أبرقت عيناه الناريتان شفرة التدخل صوب رجاله المتأهبين، ووجهت شفتاه صوب "حجاج" بيانا منطوقا بنبرة حمراء،

نبرة الذي لم يتبق لديه إلا الخيار الأسوأ: "لن نقتل الثعبان، قلنا لك أن تضعه في هذا الكيس، وقلنا لك أن ترمي السلاح وتسلم نفسك، لن أعيد هذا، أمامك عشر ثوان لتنفذ، بعد الثواني العشرة سنعمل القوة وبالطريقة التي نضطر إليها."

وبدأ العد، ومعه بدأ رد "حجاج"، وكان ردا باردا حارقا: مد يديه صوب الضابط مقبلا عليه بوجه لاحت فيه تلك البسمة الشاحبة أقل شحوبا؛ بدت معها الثنايا والزوايا أكثر تعبيرا عن تركيبة مزاجية مستغلقة تبعث على التوجس من خبث، على الاطمئنان إلى مسالم، تدعو إلى العطف والتعاطف مع مستسلم مقهور حظه عاثر.. ثم فتح فما عن لسان ثعباني ناطق: "وفروا القوة، وفروا الطريقة، ما معي سلاح، ما معي ثعبان، أنا هو الثعبان والثعبان هو أنا! سأسلمكما نفسينا نفسا واحدة!"

كف العد، تبادل الضابطان نظرات زائغة، عرا ملامحهما بعض التشنج، دب مادب في رجال الشرطة وفي رجال الصحافة، اشرأبت أعناق للمحتشدين، والأنفاس تعقدت في صدور بعضهم.. و"حجاج" مشغول عن الجميع أو متشاغل عنهم بحذائه الرياضي؛ جلس يرتديه في أناة وهدوء، تحت عيون مسلطة عليه تحصي عليه كل جزء من كل حركة.. ثم قام ونظر إلى الضابط نظرة المستأذن ليتناول قميصه ويرتديه باذلا في ذلك جهدا وحرصا يجعل حركاته محسوبة مضبوطة لا تثير ذرة من شك. وفعل مثل ذلك وهو ينحني على "الجاكيتة" الجلدية: أخذها بحيطة، قلبها باطنا على ظاهر، نفضها نفضا متكررا: لا سلاحا سقط ولا أثرا لثعبان!! ثم حرص على ارتدائها بنفس الكيفية التي ارتدى

بها القميص ليسارع نحو الضابط الهاجم متقيا هجومه بيدين ممدودتين ليسلمه قبضتيه، فسارع أحد رجاله وأطبق عليهما بالكبل في عنف، والتحق به آخرون ليدفعوا به داخل السيارة فانطلقت به صارخة.. وبقيت السيارة المطاردة للثعبان مكانها يحفها بعض الصحفيين ببعض الفضول، يرشقها المحتشدون بهمهماتهم ولغطهم لينفضوا عنها تدريجيا متبادلين تعليقات كأنهم خارجون من قاعة سينمائية! وبأمر من الضابط المتحير الضجر غيرت السيارة مكانها وتوزع رجاله في الحديقة يمشطونها في منتهى الحرص والحذر.

في المساء تابعنا على الشاشة المعالجة الأولى للحادث؛ أكثر التركيز انصب على البنية و"ماماها". ظهرتا في مصحة في حالة نفسية طبيعية. أما صورة حجاج فأكثر الضوء سقط فيها على الجرح الموسوم فوق العين اليمنى! في الصباح اقتنيت أكثر من صحيفة بحثا عن معالجات أخرى للحادث، قرأت عناوين كثيرة : "ثعبان مهاجر يحتجز رهينة!". "مشعوذ مهاجر يخلص ثعبانا مهاجرا!". "بعد الهجرة السرية للمغاربة تأتي هجرة ثعابينهم !". "هل هما ثعبانان أم ثعبان واحد ؟ !" ما رأي "لويس باستور" في بركة "بويا رحال؟"

تتبعت النصوص فوجدتها متشابهة، تحكي نفس الحكاية باستثناء نص امتاز بإضافة وخاتمة: الإضافة كتب فيها صاحبها: "إن الطفلة "الرهينة" من أم فرنسية وأب مغربي مهاجر مقيم بصفة قانونية. "أما الخاتمة فكتب فيها نفس الصحفي: "عن لي أن أنجز استطلاعا للرأي العام الفرنسي في شأن هذا الحادث أو "الحدوثة"، لكنني عدلت عن

ذلك بعدما سمعت رد أول مستجوب، وهو السيد الضابط الذي قام بمطاردة المدعو "حجاج"، وتسليمه إلى "الكوميساريا"، قال لي: ".. إنها قضية مغربية غريبة ككثير من الغرائب المغربية، نجد أنفسنا متورطين فيها نحن الشرطة الفرنسية!"

سيدي يحيي الغرب
2007/2/17...95/5/17

الأســد الحكيــم

رأس الحكاية:

"منذ عرف الإنسان وحشية الظلم والحيوان يتلكم بكل لغات الإنسان".

جسد الحكاية:

أحاطت جماعة الحمير بكبيرها والرعب باد عليهم، الأتن تنوح متفجعة، الحمر تضمد جراحها الثخينة: أذناب مبتورة، أفخاذ مسلوخة، بطون مبعوجة.. تأمل كبير الحمير الحالة في أسى ثم زفر سائلا: "من فعل بكم هذا؟ فأجابه أحدهم: إنها الذئاب، باغثتنا، هربنا فطاردتنا حتى نالت منا."
قال كبير الحمير بحنق: "أف، أف، اعتزلنا في هذه المنطقة النائية هربا من طغيان الإنسان فلاحقنا شر الحيوان."
ونطقت أتان ثكلت وحيدها: "إلام يستمر الحال هكذا؟ يا ويحنا!"

انتصبت الأذنان القصيرتان لكبير الحمير وصوته الواضح يغطي على الأنين والنواح: "اسمعوا، سأطلعكم على أمر فكرت فيه طويلا وكثيرا طوال خلوتي، لقد علمت أن أسدا عرف بحكمته يوجد في خلوة بعيدة منا وصفوها لي، وإني ذاهب إليه لأستشيره، فاصبروا علي حتى أرجع لعلي أعود إليكم بمشورة فيها خيرنا."
فارتفع صوت محتجا: "الأسد أشرس أعدائنا، فكيف تستشيره في أمرنا، بئس المستشار وبئس المشورة!."

فرد كبير الحمير بصوت آمر: "لا تجادلوني، لا تعارضوني، انها مجازفة أتحمل وحدي نتائجها، فأعيونني بالصبر حتى أعود إليكم."

وأخذ طريقه وهم صامتون.. وحين غاب عنهم انتفض جحش بعد صبر صارخا: "كيف تركتموه يذهب وحده، يا لكم من جبناء! لم يجرؤ أي منكم على مصاحبته وهو في سن لا تسمح له بتحمل كل المشاق."

كانت في الجحش فتوة ونباهة جعلتا له نفوذا وسط الحمير فلم ينبس أحدهم بصوت حتى قال الجحش" إني مدركه لأعينه في سفرته." عند ذلك تدافعت الحمير وأحاطت الجحش وقال قائل: "أنت فتوتنا ونبيهنا، وأنت في مكان بعد كبيرنا، ولن نسمح لك بمصاحبته."

وعندما رأوه يتلمس منفذا للالتحاق بكبيرهم حاصروه وشددوا عليه الحصار..

بعد أيام من السير المتواصل الحثيث صبر خلالها كبير الحمير على الجوع يحس بالعطش يشتد عليه، فيسخر كل شمه لتلمس مكان الماء، ويستعين في ذلك بالطيور وهي تقع في مكان يستشعر فيه ضالته، ويقاوم تعبه وعطشه حتى يشرف على "ضاية" نبت في مواضع منها العشب وتوزعت حولها غدران وجداول.. بعدما يروي ظمأه يقف يتأمل "الضاية" بهدوء وتفكر فيرى وسطها ربوة كأنها جزيرة صغيرة، ويأخذه التفكير في أمر الجزيرة الصغيرة وقتا ليفيق وقد رأى أسدا يظهر على المرتفع ثم ينزل إلى الماء ويسير

فوق صفحته دون أن تغوص به قوائمه كأنما يمشي على اليابسة!

يتسمر الحمار في مكانه مشدوها يتابع الأسد وهو يسير نحوه حتى يدنو منه ليخاطبه بصوت هادئ:

- منذ سنين، منذ انعزلت في هذا المكان لم أر حمارا في هذه الناحية، لذلك حين أبصرتك رجح لدي بأنك هنا لأمر ما؟ هل ظني في محله ؟"

فيجيب الحمار:

- هو كذلك، وأنت؟ أنت الأسد الحكيم بلا شك، هل ظني صائب؟

- يسمونني "الحكيم" أما أنا فأعتبر نفسي أسدا وكفى، أسدا طلب الحكمة ومازال يطلبها.

- اسمع أيها الأسد الحكيم، لم آت هنا لفسحة بل قطعت مسافات طويلة محفوفة بالمخاطر أقصدك في أمر يخص جماعتي.

- لن أسمع منك كلمة حتى تذهب معي إلى بيتي فتستريح وتأكل.

- وهل آمن على نفسي منك؟

- كل الأمان، أتريد دليلا؟

- حبذا..

- هل رأيت أسدا يأكل العشب ؟

- ما رأيته إلا مفترسا للحوم

فيميل الأسد إلى العشب عن يمينه ويساره يقضمه كالمجترات، ويستمر في ذلك مستمرئا والحمار تعجبا يزداد

واطمئنانا! حتى يقول: "منذ اعتزلت في هـذا المكـان وأنـا أشرب من ماء هذه "الضاية" ولا آكل إلا من عشبها، وحين يقل أستعين على الجوع بالجوع، هل اطمأن قلبك الآن؟"

– كل الاطمئنان، ولكن، ولكن كيـف الـسبيل إلـى بيتـك و"الضاية" تبدو لي عميقة؟

– إنها كذلك، وعليك أن تمتطي ظهري بـشرط ألا تنـبس بصوت ونحن فوق الماء إلى أن نصل.

يركب الحمار ظهر الأسد، يظل هذا الأخير واقفـا مدة وعيناه مطبقتان ثم ينطلق فوق صفحة المـاء ولا يفـتح عينه حتى يصل إلى "جزيرته الصغيرة" ويقف وقتا، بعـدما تخلص من الحمل، يتنفس ببطء وعمق، والحمار يلمس آثـار التعب بادية عليه فيخاطبه: "لقد أتعبتك، لم يكن مـستحيلا أن أسبح" فيجيبه الأسد: "لا عليك، سيزول التعب بعـد وقـت، اسمع حولك الماء، أمامك العشب، كـل واشـرب ماشـئت، سأستريح بعض الوقت، وحين يطلع القمر ويشع نوره سآتيك لأسمع منك ما جئتني في شأنه."

خلال الغروب تهب النسائم على "الضاية" فتخـرج من ثنايا "البردي" والحشائش المائية طيور كثيرة تنتشر على أديم الماء تدف بأجنحتها تستقبل الهبات الرخوة، وفي الأفـق تلوح أسراب عائدة إلى "الضاية".. وحين تغيب الشمس تماما تتعالى أصوات الطيور وقد بزغ القمر وشع نـوره، فيكـف الحمار عن قضم العشب اللذيذ ليستلذ الأشعة المنعكسة على الماء وأصوات الطيور المتناغمة.. وتستحوذ على وجدانـه الظلال والأضواء والأصوات فلا يلتفت إلى الأسـد بجانبـه حتى يجهر بصوته:

ـ أأعجبك هذا العالم يا صاحبي."

فيعود الحمار من شروده مجيبا:

ـ طبعا، كيف لا يعجبني، إنه عالم ساحر، طوبى لك أيها الأسد الحكيم، أكيد أن هذه الطيور الكثيرة آمنة هنا ؟

ـ لم تكن كذلك في بداية الأمر، كانت المسكينة تحتمى في أماكن مستعصية من الضاية، لكن بعض البشر، أعوذ بالله، كانوا يلاحقونها على قوارب ليصطادوها بالبنادق، حتى كان يوم أبصرت فيه بعضهم على قارب يجذفون فنزلت إلى الماء أقصدهم، فلما رأوني أمشي فوق الماء ذعروا وروعوا فرموا بالبنادق وارتدوا على أعقابهم يجذفون بالمجذاف والكف، وقبل أن يبلغوا اليابسة ارتموا في الماء يطلبون النجاة تاركين وراءهم القارب لتعبث وتبيض فيه الطيور.. من يومها لم يظهر قارب في "الضاية" فتكاثرت الطيور وتنوعت.

ويجول الحمار بناظريه في "الضاية" ثم يقول بشاعرية:

ـ أكيد أنك وهذه الطيور أصبحتما كلاكما للأخر أنيس.

ـ أصبحت أنيسي أميز أصواتها فأعرف الذي غاب والذي عاد بعد غياب، وأصبحت خريطتي بها أعرف روائح لربوع في الدنيا لم ترها عيناي قط، تعلمت الكثير ومازلت أتعلم، قل لي ياصاحبي: ما الذي قصدتني من أجله؟

ـ آه، سأكدر عليك هذا الصفو بالشكوى، نحن – أيها الأسد الحكيم – جماعة من الحمير هربنا من طغيان الإنسان إلى منطقة نائية نعيش على ما فيها، لكن المفترسين من الحيوان لم يرحمونا، ولما سمعت بحكمتك قصدتك لتشير علي بوسيلة تحمي جماعتي من البلاوي.

ـ آه يا صاحبي، ما أسهل أن تستشير الكذابين المدعين، وما أصعب أن تستشير الذي يتحفظ في شيء يعرفه حق المعرفة!

ـ إني طامع في الذي تعرفه حق المعرفة، فلا تتحفظ أيها الأسد الحكيم.

ـ يا صاحبي، لا أخفيك أن قضية الطغيان الذي يمارس عليكم من القضايا التي لا تغيب عن بالي، فكري بها مشغول ليل نهار، وقد وجدت أن ذلك مرده إلى "جيناتكم" الوراثية.

ـ "جيناتنا" الوراثية؟ ما معنى هذا أيها الأسد؟

ـ "الجينات" يعني "المورثات"، ألا تعرفها ؟

ـ الصراحة، لا أعرفها.

ـ والمني؟ أتعرفه أيها الحمار؟

ـ نعم أعرفه.

ـ في المني أيها الحمار يوجد الحيوان المنوي الذي يخصب بيضة الأنثى وبذلك يتم النسل هل تفهم هذا ؟

ـ نعم أفهمه بوضوح.

ـ في هذا الحيوان المنوي ياصاحبي توجد "الجينات" يعني "المورثات" وهي الحاملة للصفات التي يكون عليها المولود. أنتم – معشرا لحمير – جيناتكم لم تتطور، لاتتطور، دائما تثمر حميرا بنفس الصفات وبنفس الهندسة. وحتى تملكوا وسيلة تحمون بها أنفسكم، كأن تكون لكم أنياب ومخالب، وأعصاب سريعة التدبير والردود، وعضلات تولد السرعة وليست تتحمل الأثـقال فحسب، لكي يتم هذا يجب أن يتم تغيير وتطوير في "جيناتكم" يعني "مورثاتكم".

فيسأل الحمار وقد تعقدت في رأسه الخطوط وتشابكت:

ـ يجب أن يتم تغيير وتثوير في "جيناتنا"، هل التغيير والتثوير أمر ممكن ؟ هل هو أمر بيدنا ؟ بعد تفكير يرد الأسد:

ـ هو أمر ممكن وغير ممكن، لا تقلق ياصاحبي من تحفظاتي فالجواب عن سؤالكم في بدايته وليس في نهايته، تعال معي إلى بيتي لأطلعك على بعض غرائب "الجينات" والهندسة الوراثية.

و لايخطوان إلا قليلا حتى يتوقف الأسد قائلا للحمار:

ـ أتسمع الطيور ؟ ألم تلمس في أصواتها شيئا ؟

ـ أسمع، أسمع، لكن اعذرني إن لم أفطن إلى شيء في أصواتها، ماذا تجد في أصواتها أنت؟

ـ إن في أصواتها خوفا شديدا .

فتنتصب أذنا الحمار القصيرتان ويلتفت إلى ناحية من "الضاية" ليقول:

ـ صدقت الطيور وصدقت أيها الأسد الحكيم، أرى أشباحا عائمة فوق الماء، هذا ما أخاف الطيور.

ويقعي الأسد متسائلا: "إنه قارب، لكن الذين عليه ليسوا بصيادين، من يكونون ؟.."

ويتساءل الحمار: "من يكونون.. "

ويتساءلان والقارب يقترب ويقترب حتى يحاذي أرض الربوة فتثب منه لبؤة إثرها أشبال ثلاثة، ويجفل الحمار مصدوما مرعوبا مرددا "أعوذ بالله من الشيطان" فيما يظل الأسد ثابتا بمكانه يراقب الأشبال وهم يأخذون أماكنهم وفق تعليمات اللبؤة، فيسألها برباطة جأش:

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا ؟
فترد اللبؤة بوقاحة وبرودة الظافر:
ـ الجوع أيها الرئيس، القرم ورائحة اللحم التي شممناها وكادت تغرقنا في الماء لولا هذا القارب، أيضايقك وجودنا؟ أتريد الاستئثار وحدك بكل اللحم ؟
فينهرها الأسد:
ـ إنك تخرفين، إني منذ حللت هذا المكان عزفت عن اللحم وأقتات بدله من العشب
ـ أوه، نسيت، ذاك شأنك، أما نحن فليس لنا عن الافتراس بديلا.
فيزمجر الأسد: "هذا الحمار في حماي ولن أسمح لك ولغيرك بمسه. "
فترد اللبؤة غير آبهة لزمجرته: "ما تقوله شيء، وما تستطيع فعله لا شيء، إن أصغر شبل من هؤلاء قادر بخبطة واحدة أن يكسر ضلوعك البارزة من كثرة قضمك للعشب."
فيصمت الأسد متفكرا وقد أفحمه الجواب ونبرة الجواب ونظرات الأشبال النارية، ويرفع بصره إلى القمر يقلب الأوضاع الغائمة في رأسه.. ويسود الصمت وقتا، حتى الطيور تصمت كأنها تتابع المشهد، ولم يعد يسمع في "الضاية" بكاملها إلا نبضات في الماء منتظمة الإيقاع تعلو شيئا فشيئا حتى تثير انتباه الجميع، فيلتفتون صوب الصوت يتابعون حجما كالرأس يضطرب فوق الماء ويقترب هونا ثم يظهر وراء الرأس عنق فظهر ثم يخرج إلى اليابسة جحش ينفض عنه البلل! ولا يقع بصر الحمار عليه حتى يهرع إليه

يحضنه معاتبا مشفقا: "ما الذي جاء بك إلى هنا يا ابني، لماذا جئت، لماذا ؟"
فيجيبه بصوت فيه ذبذبات الاعتزاز والفجيعة: "أكنت تعتقد أني تاركك لوحدك، الجماعة حاصروني وشددوا علي الحصار فتمارضت حتى أيقنوا أني لن أقوى على النهوض، ثم غافلتهم وعدوت وراءك من حيث لا تراني، ولما رأيتك تركب ظهر الأسد هدأ قلبي، ومكثت أنتظر رجوعك حتى لمحت هؤلاء (مشيرا إلى اللبؤة والأشبال) فلم أطق صبرا وسبحت إليك..
ويقاطعه كبير الحمير وهو يضمه بكل قواه: "لماذا أتيت، لماذا ؟؟"
ــ لأفديك بنفسي، فقد تعود للجماعة بشيء لن أعود به أنا..
.. وبينما هما كذلك تقترب اللبؤة منهما، أحشاؤها تتواثب، لعابها دافق، فتجذب كبير الحمير حتى تسقطه لتقف تفحص تفاصيل الجسد الغض، فيباغتها الجحش بركلة تدمي شفتها، ويزأر الأسد "الحكيم" زأرة تصوت لها كل طيور "الضاية" فيخمد صوته وزمجرته أصغر الأشبال بلطمة ليجثو فوق ظهره ماسكا شعر رقبته، فيما ينقض الاثنان على الجحش ينشب الأول مخالبه وأنيابه في الفخذ الخلفية، والثاني يغرس أدواته في أعلى القائمة الأمامية، وتستوي اللبؤة بتأن، تمسح شفتها ثم تفتح فكين يظهر شعاع القمر زرقة أنيابهما، وينكمش الفكان على قفا الجحش فتنضغط وتندق من انطباقهما العظام حتى تفر عن مائها الطيور، والجسم الغض يتهاوى منتفضا ليبدأ النهش والهبز والتمزيق.. مصرع لا يطيق كبير الحمير وطأته فيسقط

مغمى عليه فيما ينهض الشبل الثالث عن ظهر الأسد لينال نصيبه بكل استحقاق.

وحين تكون اللبؤة وأشبالها غارقين في الدم والنهش والهبز والبلع ينصرف الأسد إلى الحمار المغمى عليه يعالجه بالماء على وجهه، حتى إذا عاد إليه وعيه رأى الأشلاء والبقايا، واللبؤة والأشبال مستلقين يتجشأون فيملأه الغيظ والمقت والمهانة والحسرة ويصيح في الأسد:

ـ "منذ حين كنت تحدثني عن حاجة الحمير إلى تغيير في "جيناتهم"، إلى تثوير في "المورثات" يكسبهم صفات القوة، وكان الأولى أن تحدثني عن تغيير وتثوير في "جينات" المفترسين تثويرا ينفي عنهم الوحشية والافتراس."

فيطأطئ الأسد برأسه مرات ليقول:

ـ لست على خطأ يا صاحبي، لست على خطأ، وما سمعته منك حدثتني به نفسي كثيرا فوجدته مستحيلا لأن النفوس ميلها إلى طلب القوة أشد من ميلها إلى طلب مايسلبها القوة."

فيرد كبير الحمير على البديهة:

ـ كلام منطقي، لكنه منطق السباع على كل حال ! الوداع، الوداع أيها "الحكيم"

ـ ألا تنتظر إلى الغذ لأحملك إلى اليابسة، فإني عاجز عن ذلك الساعة لأن معنوياتي منهارة

ـ "لا داعي لذلك، سأسبح، إن غلبت الماء فذاك، وإن غلبني فالميت لا خوف عليه من الموت."

ويمرغ كبير الحمير وجهه وخيشومه في دماء الجحش تحت نظرات المفترسين المتخمين اللامبالية، ثم يقذف بجسمه في

"الضاية" يحمل رأسا داميةفوق قوائم تتخبط في الماء ليعود من حيث أتى حطاما كظيما. ولا يصاحبه خلال عودته المضنية إلا "بومة" تابعت الأحداث منذ بدايتها.. عندما يصل إلى جماعته يلتفون حوله يشتمون دماء "فتوتهم" صارخين مولولين متفجعين، حتى أذا أنهكهم الندب مالوا عليه سائلين: "مصير فتوتنا عرفناه، فبماذا أشار عليك الأسد الحكيم يا كبيرنا ؟"

فيجيبهم كبيرهم: "لا أذكر، لا أذكر، نسيت."

ويسكتون عنه وقتا ليعاودوا السؤال: "يا كبيرنا، بماذا أشار عليك الأسد الحكيم ؟"

فيجيب: "لا أذكر، لا أذكر، نسيت"

ويكررون السؤال مرات ومرات ليسمعوا نفس الجواب. يطول ذلك عليهم فيشول الحمير بأذيالهم وآذانهم متحيرين يائسين، ولسان حالهم يقول:

"أيعقل ألا يتذكر كبيرنا أمرا عهده قريب وذاكرته تتسع لتاريخنا البعيد والقريب بكل تفاصيله؟"

وهب أنه فقد ذاكرته، كيف يتذكر طريقه إلينا وقد فقد ذاكرته... ؟"

ذيل الحكاية:

البومة فطنت لما في جواب الحمار، فكانت كلما جن الليل حلقت فوق الرؤوس وهي تنعب بصوت حاد:

ونسي الأذى في البهائم طبــعٌ * ولولاه ما عاش صنف الحميــر!

• البيت للمؤلف

15 ماي 1994
سيدي يحيى الغرب

الفهرس





للمؤلف :

* "حنظلة" مجموعة قصصية حائزة على جائزة أبي القاسم الشابي لسنة 1991، صدرت عن دار النشر المغربية للطباعة - الدار البيضاء.

* لعنة الصفيح : رواية صدرت عن مطبعة المعارف الجديدة بالرباط سنة 1994.

* عتبات وأبواب.

فرشف " المزابي-رامبو " من فنجانه، ومد كفه على الطاولة مفرجا وسطاه وسبابته وبقي كذلك حتى وضعت بين أصبعيه سيجارة أشعلها وتابع : « وذات يوم يا -سيدي ابراهيم- كان النفخ في الغيطة على أشده، والثعابين تتلوى على إيقاع النوطات الرحالية، فإذا بالعناد يركب رأس حجاج، وإذا به يغير الإيقاع، وإذا بالنرفزة تظهر على الثعابين، وإذا بأب حجاج يخطف الغيطة من فم حجاج ويرفعها إلى الأعلى ثم يهوي ببوقها على جبين حجاج حتى غاصت حاشية من البوق في اللحم، ففرت الثعابين إلى الصن... والزوايا، وفر جلد الجبين عن بعضه ليتدلى جزء منه بلحم... وشحمه ودمه على العين اليمنى لـ حجاج.

وسكت الحاكي، وسكتنا بعد سكوته سكوتا.. يلفنا دخان التبغ ... الصمت برشفات القهوة. ثم انتبهنا إلى الشارع حولنا.. قلنا... كثيرا.. لكن كل الكلام لم يمح ذرة واحدة من محلول السحر الذ... في مشاعرنا حكي الولد لمزابي-رامبو .

